مشاهير قادة الإسلام

عبد الرحمن الداخل

(صقر قريش)

بسّام العسلي



١٢

مشاهير قادة الإسلام

(١٢)

عبد الرحمن الداخل

(صقر قريش)

بسّام العسلي

دار النفائس

الطبعة الثانية

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

ـ دار النفائس

بيروت، ص ب ٦٣٤٧ - هاتف ٣٠٢٥٣٨ - برقيا: دانفايسكو

صورة الغلاف: بريشة الفنان خالد المسلي

بسم الله الرحمن الرحيم

من شعر عبد الرحمن الداخل

آ — في الحنين إلى الشام :

أيها الراكب الميمم أرضي أقر مني بعض السلام لبعضي
إن جسمي كما علمتَ بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض
قُدِّرَ البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي

ب — في نخلة رآها :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول اكتئابي عن بني وعن أهلي
نشأتِ بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي
يسحُّ ويستمري السماكين بالوَبل

ومـــا قيل فيه

« كان الامام عبد الرحمن الداخل ، راجح العقل ، راسخ الحلم ، واسع العلم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، لم ترفع له راية على عدو قط إلا هزمه ، ولا بلد إلا فتحه ، شجاعاً ، مقداماً ، شديد الحذر ، قليل الطمأنينة ، لا يخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دعة ، ولا يكل الأمر إلى غيره ، كثير الكرم ، عظيم السياسة يلبس البياض ويعتمّ به ، ويعود المرضى ويشهد الجنـــائز ، ويصلي بالناس في الجمع والأعياد ، ويخطب بنفسه ، جنـّد الأجناد وعقد الرايات ، واتخذ الحجاب والكتاب ، وبلغت جنوده مائة ألف فارس » .

ابن حيان ٢ / ٣٧

الوجيز في حياة عبد الرحمن الداخل

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١١٣	٧٣١	ولادة عبد الرحمن بدير حنا من أرض دمشق وقيل بالعلياء من تدمر ، أبوه معاوية وأمه بربرية من قبيلة نفزاوة اسمها (راح) أو (رداح) .
١٣٢	٧٤٨	زوال الدولة الأموية، وفرار عبد الرحمن من الشام إلى افريقية .
١٣٨	٧٥٥	دخول عبد الرحمن إلى الأندلس .
١٣٩	٧٥٦	القضاء على ثورتي يوسف الفهري والصميل .

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٤٦	٧٦٣	القضاء على ثورة العلاء بن المغيث اليحصبي. وإرسال رؤوس قادة الثورة إلى القيروان ومكة المكرمة في موسم حج أبي جعفر المنصور .
١٤٧	٧٦٤	القضاء على ثورة هشلم بن عروة في طليطلة .
١٤٩	٧٦٦	القضاء على ثورة سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بكورة لبلة .
١٥٠	٧٦٧	ثورة البربر في شنت بريه (سانتا ماريا) .
١٥٢	٧٦٩	ثورة رجل من البربر اسمه: سفين بن عبد الواحد المكناسي (شقنا) ، واستمرت ثورته حتى تمّ قتله سنة ١٦٠ هـ . وكان يزعم أنه من أهل البيت .
١٥٦	٧٧٣	ثورة اشبيليا بقيادة عبد الغافر اليحصبي .

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٥٧	٧٧٤	ثورة سرقسطة بقيادة الحسين بن يحيى (الخزرجي).
١٦٤	٧٨٠	ثورة الرمامس بأرض الجزيرة (جنوب الأندلس).
١٦٨	٧٨٤	ثورة المغيرة بن الوليد بن معاوية.
١٧٠	٧٨٦	البدء ببناء جامع قرطبة.
١٧٢	٧٨٨	وفاة عبد الرحمن الداخل عن عمر يناهز الاثنتين وستين سنة. ودفن بالقصر من قرطبة وكانت مدة حكمه في الأندلس ثلاث وثلاثين عاماً قضاها في جهاد مستمر وعمل دائم.

المقدّمـــة

« أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا
وأنّ الله على نصرهم لقدير » .

(سورة الحج : ٣٩٢)

مضت السنوات ، آحادها وعشراتها ومئاتها وحتى ألفها ، ولا زال صقر قريش مـلء سمع الدنيا وبصرها ، فهو واحد من أعظم الرجال في السياسة والحرب ، وهو مؤسس دولة بقيت زمناً طويلاً رمزاً للحضارة العربية الإسلامية ، وتلك هي بضع بقايا متناثرة فوق الأرض الأندلسية تشهد بما حققه العرب المسلمون من منجزات حضارية رائعة ، فجامع قرطبة ، وقصر الحمراء في غرناطة ومئذنة الجيرالدا في إشبيليا ، والأسماء العربية المحرفة لا زالت تشغل حيزاً كبيراً في اللغة الأندلسية ، ولو أمكن لتراب الأندلس أن ينطق لشهد بأنـه امتزج حتى أعماق الأرض بدماء المسلمين الذين ناضلوا طويلاً لرفع راية الإسلام ونقل تراث الحضارة العربية ، وتلك هي مكتبة « الاسكوريال » تحفل بأضخم ما في التراث الأندلسي ، وهو تراث لا يشكل أكثر من حبات قليلة في

سلك ممدود كان يزين جيد الزمان يوم كان للعرب المسلمين وجودهم في العالم .

فهل نبكي مجداً ضائعاً كما فعل أبو عبدالله (الصغير) يوم ودع غرناطة ؟

ليس ذلك هو الهدف، فلا دموع أبي عبدالله أعادت للأندلس إسلامها ، ولا المسيرة الشاقة على درب الأحزان والآلام قد ساعدت على مجابهة الحروب الصليبية التي ما تكاد تنطفىء لظاها حتى تعود بأشكال جديدة مسايرة « لروح العصر ». وهي تعود في كل مرة بأقوى مما كانت عليه .

قضية الأمير عبد الرحمن الداخل هي قضية العصر ، وكل عصر ، قضية الاعتماد على القدرة الذاتية التي وفرها الإسلام للعرب المسلمين . ومن هنا فإن سيرة صقر قريش ، تكتسب أهميتها وتكتسب قيمتها . لا في مجال الحرب فقط ، وإنما في مجال السياسة الاستراتيجية ، أو السياسة العليا ، وفي مجال بناء الدولة وإقامة الحضارة ، والإسهام في الاتصال العالمي .

ذلك هو الأمير عبد الرحمن الداخل – صقر قريش – يمضي والخوف يطارده ، وخطر القتل يلاحقه ، ليس لديه من المال إلا القليل ، وليس لديه من الأنصار إلا النذر اليسير ، ولكن كان لديه عقل مبدع ، وتصميم كبير ، وإرادة صلبة ، سهلت له العسير ، وقربت إليه ما كان صعب المنال . فبقي رجل الدنيا وواحدها في علم السياسة ، وفن الحرب ، وأقام دولة ستبقى حديث الزمان.

ولكن ما فائدة تلك الدولة ومـا أهميتها ؟ طالما لم يتمكن الأحفاد من المحافظة على تراث الأجداد ؟ وماذا تفيد بقية من الأوابد ، أو مجموعة من الأطلال ، أو شذرات من محيط، طالما لم يبق من أندلس المسلمين غيرها ، وهل تفيد بقايا الماضي في إغناء الحاضر والمستقبل؟ ثم ما أهمية ذلك كله أمام واقع لم يبق فيه من تراث الماضي غير اسم ، أو مع تنكر حق للاسم ذاته ؟ ذلك هو بعض ما تطرحه سيرة الأمير عبدالرحمن الداخل «صقرقريش».

وقضية البحث في (فردوس الأندلس المفقود) غير بعيدة ، ولا منفصلة عن « قضية الفردوس المفقود في فلسطين » على الرغم ممـا بينهما من تباعد في حدود الزمن ، وفي الحدود الجغرافية ، والقضيتان من المنظور التاريخي وجهان لحرب واحدة متصلة . ومن هنا تبرز أهمية البحث في التجربة التاريخية . ثم إن التراث التاريخي لأي أمة هو القاعـدة الأساسية لمعالجة قضايا الحاضر المصيرية ولبناء المستقبل .

ولعل أخطر مـا تتعرض له الأمة العربية – الإسلامية في حاضرها –كما في ماضيها– هو تركز الجهد المعادي للأمة العربية الإسلامية لضرب هذه القاعدة، وإبعاد قضية الصراع عن صورتها الحقيقية. وتلك هي الأهمية الثانية في العودة إلى القاعدة التاريخية.

وتبقى دروس الأندلس (أندلس العرب المسلمين) محتفظة بكل دفئها وبكل حرارتها وبكل أهميتها على الرغم من كل تباعد جغرافي أو تقادم زمني. ذلك أن عوامل الصراع لا زالت كما هي

في الصراع الذي يعيشه عالم العرب المسلمين بعد أكثر من ألف ومائتي عام .

وفي كل الأحوال ، فليست الصورة قاتمة مظلمة على نحو ما يحاول فرضها أعداء العرب المسلمين ، إذ على الرغم من الحرب الشاملة ، وعلى الرغم من قوى الضغط والقهر ، فلا زال العرب المسلمون يعيشون مرحلة المخاض الكبير ، الذي سينفجر يوماً عن فجر جديد ، تعود فيه الأمة العربية لتحرير أراضيها وتوحيد كلمتها ، وتجاوز السدود والقيود المفروضة عليها .

لقد أصبحت قضايا العرب والمسلمين مطروحة عالمياً ، ومع هذا الطرح تتزايد قوى الضغط في ممارسة دورها من خلال العمل على تفتيت وحدة العالم العربي وتمزيقه ، وتدميره من الداخل .

وتظهر للمرة الثالثة والعاشرة أهمية العودة للقاعدة التاريخية من أجل معرفة عوامل الأصالة التي مكنت العرب من التغلب على كل أشكال العدوان ، ما خفي منها وما ظهر .

وتبقى قصة الأمير عبدالرحمن الداخل «صقر قريش» منارة مضيئة في عالم العرب المسلمين ، إنها ليست مجرّد سيرة قائد كبير ، وإنما هي قصة رجل في أمة وحكاية أمة في رجل .

وعسى أن يكون في تلك القصة الفائدة والمتعة والفائدة قبل المتعة .

والله أسأله التوفيق .

بسام العسلي

الفصل الاول

عبد الرحمن الداخل « صقر قريش »

١ – نهاية العهد الأموي في المشرق .
٢ – الأندلس قبل العهد الأموي .
٣ – الرحلة الشاقة – وإقامة الدولة الأموية في الأندلس .
٤ – يوم المصارة – النصر الحاسم .
٥ – الطريق لبناء الدولة .
٦ – القضاء على مراكز القوى (الفتن والثورات) .
٧ – الحزم في بناء الدولة .
٨ – الحرب والحضارة .
٩ – عبد الرحمن وولاية العهد .



١ ــ نهاية العهد الأموي في المشرق

ارتفعت الأعلام السوداء ، وانطلقت حشود قوات المسلمين الهادرة الثائرة من جوف الهضبة الإيرانية وهي تجتاح في طريقها كل ما بقي من مقومات الأمويين . لقد بقيت بلاد فارس وهي تضطرم ناراً طوال العهد الأموي ، واستطاع ولاة بني أُمية قمع الفتن وإخضاع الاضطرابات والقضاء على الثورات ، ولكن قوى الثورة تجمعت في النهاية تحت راية نصرة « آل البيت » من بني العباس ، أبناء عمومة الأمويين ، وانطلقت إلى هدفها الوحيد « إزالة حكم بني أُمية » الذي بقي رمزاً لقوة العرب المسلمين .

لم يكن الأمر مباغتاً ، فقد مضت سنوات والأخبار تترى على حكام بني أمية تنذرهم بالشر المستطير . لقد كان نصر بن سيار . آخر ولاة الأمويين في خراسان . وكان نصر عربياً مسلماً مؤمناً، توافرت له كفاءة قيادية عالية في مجالي الإدارة والحرب، وقد أقام في خراسان طويلاً وهو يحاول جهده ويبذل قدر استطاعته للسيطرة على الموقف المتفجر ، لكن جهوده كانت

تصطدم المرة بعد المرة بمقاومة دعاة بني العباس الضارية، وظهر له في النهاية أن الثورة قد وصلت إلى مرحلتها النهائية ، وأسعفه الموت فلم يشهد نهاية الحكم الذي دافع عنه ، والذي أخلص له طوال حياته (١) .

كان هشام بن عبد الملك قد اختار نصر بن سيار الكناني «من اليمنية » لولاية خراسان بسبب ما اشتهر به من الفضائل وذلك في سنة ١٢٠ هـ (٧٣٧ م) . وقد وصف نصر بأنه « أرجل القوم وأحزمهم وأعلمهم بالسياسة » ، وقيل عنه أيضاً (بأنه عفيف مجرب عاقل) ولما قيل لهشام بأن عشيرة نصر بن سيار قليلة في خراسان . أجاب قائله : « لا أبا لك — أتريد عشيرة أكثر مني — أنا عشيرته » .

وكان اختيار هشام لنصر بن سيار اختياراً موفقاً فقد كانت خراسان تضطرم ناراً منذ عهد طويل ، فمضى نصر بعزم لا يلين وإرادة لا تفل لإدارة البلاد ، ولم تمض سوى أربع سنين حتى عمرت خراسان عمارة لم تعمر قبل ذلك مثلها ، ووضع الخراج ،

---

(١) كتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد ، ينذره بخطر أبي مسلم الخراساني ، ومما كتبه له (شعراً) :

أرى بين الرماد وميض جمر ... فأحج بأن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب مبدؤها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام

(الطبري ٧ / ٣٦٩)

وأحسن الولاية والجباية [١] ومضى لإخضاع المناطق المتمردة فيما وراء النهر (نهر جيحون – أو أموداريه) حيث باب الحديد وسمرقند والشاش وفرغانة والصفد ، فأخضع الثورات وقضى على الفتن .

وعندما توفي هشام سنة ١٢٤ هـ، وولي الوليد بن يزيد الخلافة عمل الوليد على تعيين نصر مرة أخرى لولاية خراسان ، وتابع نصر بن سيار بذل كل جهد مستطاع ، حتى إذا ما ظهر له تفاقم خطر الدعوة العباسية ، تصدى لها ، وجابهها بحزم، وعرف فيها حركة هدفها القضاء على العرب [٢] وحاول جمع العرب وحشدهم لقتال أبي مسلم الخراساني . لكن المنية وافته في مرو سنة ١٣١هـ

---

(١) وفي ذلك قال سوار بن الأشعر يمتدح نصر بن سيار :

أضحت خراسان بعد الخوف آمنة ... من ظلم كل غشوم الحكم جبار
لما أتى يوسفاً أخبار ما لقيت ... اختار نصراً لها - نصر بن سيار

(الطبري ٧ / ١٥٨)

(٢) وفي ذلك قال نصر بن سيار منذراً العرب طالباً إليهم حشد طاقاتهم لمجابهة ما يتهددهم ويطالبهم بنبذ خلافاتهم :

أبلغ ربيعة في مرو وفي يمن ... أن اغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ما بالكم تنشبون الحرب بينكم ... كأن أهل الحجى عن رأيكم غيب
وتتركون عدواً قد أحاط بكم ... ممن تأشب لا دين ولا حسب
لا عرب مثلكم في الناس تعرفهم ... ولا صريح موال إن هم نسبوا
من كان يسألني عن أهل دينهم ... فإن دينهم أن تهلك العرب
قوم يقولون قولاً ما سمعت به ... عن النبي ولا جاءت به الكتب

(الطبري ٧ / ٣٦٤)

(٧٤٨ م) . فمضى إلى ربه راضي النفس ، قرير العين .

لم يكن بنو أمية نياماً عن خطر الدعوة العباسية ، وكان ولاتهم وعيونهم يحملون إليهم الأخبار تباعاً . وعندما باع عيسى ابن معقل العجلي خادمه أبو مسلم الخراساني بمبلغ أربعمائة درهم إلى بكير بن ماهان (في سنة ١٢٤ هـ = ٧٤١ م) وعاد أبو مسلم إلى خراسان لبثّ الدعوة العباسية ، كانت عيون الأمويين تتابع رصد حركاته وسكناته .

ولكن هشام بن عبد الملك بن مروان توفي في السنة التالية (١٢٥ هـ = ٧٤٢ م) فماتت بميتته عظمة بني أمية وقوتهم وبأسهم إذ تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ولم يكن له من صفات هشام شيء ، لا في حلمه ولا في حزمه ، ولا في تقاه وورعه [١] ولم تزده الخلافة إلا سوءاً على سوء . فكان حكمه كما

---

(١) جاء في تاريخ الطبري – ٢١٠/٧ طبعة ذخائر العرب – ما يلي: « تمادى الوليد في الشراب وطلب اللذات فأفرط ، فقال له هشام : ويحك يا وليد ! والله ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا ! ما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيته غير متحاش ولا مستتر ، فكتب إليه الوليد :

يا أيها السائل عن ديننا   نحن على دين أبي شاكر
نشربهـــا صرفاً وممزوجة   بالسخن أحياناً وبالفاتر

فغضب هشام على ابنه مسلمة – وكان يكنى أبا شاكر – وقال له: يعيرني بك الوليد وأنا أرشحك للخلافة ! فالزم الأدب واحضر الجماعة. وولاه موسم الحج سنة تسع عشرة ومائة ، فأظهر النسك والوقـــار واللين ، وقسم بمكة والمدينة أموالاً . فقال مولى لأهل المدينة وهو يعرض بالوليد : =

وصفه المؤرخون : « لما ولي الوليد بن يزيد بن عبد الملك. وأفضت إليه الخلافة ، لم يزدد في الذي كان فيه من اللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق إلا تمادياً وحداً – فتركت الأخبار الواردة عنه بذلك كراهية إطالة الكتاب بذكرها – فثقل ذلك من أمره على رعيته وجنده ، فكرهوا أمره. وكان من أعظم مـا جنى على نفسه حتى أورثه ذلك هلاكه وإفساده على نفسه بني عميه بني هاشم وولد الوليد – ابني عبد الملك بن مروان . مع إفساده على نفسه اليمانية ، وهم أعظم جند أهل الشام»[1] فكان أن قام يزيد بن الوليد – الناقص – بقتل الوليد ابن يزيد ولم تمض على إمرته أكثر من خمسة عشر شهراً [2] .

ولكن الأمر لم يستقم ليزيد بن الوليد، فقد خرج عليه سليمان ابن هشام بن عبد الملك بعمان ودمشق، وخرج عليه أيضاً مروان ابن عبد الله بن عبد الملك الذي كان عاملاً للوليد على حمص .

= يا أيها السائل عن ديننا　　نحن على دين أبي شاكر
الواهب الجرد بأرسانهـا　　ليس بزنديق ولا كافر

(١) المرجع السابق ٧ / ٢٣١ .

(٢) توقع العباس نهاية الحكم الأموي عندما رأى الاضطرابات ، فقال : يا بني مروان : إني أظن الله قد أذن في هلاككم ، وتمثل قائلاً :

إني أعيذكم بـالله من فتن　　مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قـد ملت سياستكم　　فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم　　إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم　　فثم لا حسرة تغني ولا جزع

(الطبري ٧ / ٢٣٩)

وأعلنت الأردن وفلسطين تمردهما ووجه يزيد قواته لإخضاع حركات التمرد المضادة له .

وكان مروان بن محمد في أرمينية ، فما ان بلغه مقتل أخيه حتى قدم إلى الجزيرة الشامية متظاهراً بأنه يطلب دم أخيه الوليد من يزيد الناقص . ولكن موت يزيد بن الوليد (سنة ١٢٦ هـ) ولما تمض على إمارته ستة أشهر وضع حداً للخلاف . فقد تولى مروان بن محمد أمرة المؤمنين . وكان عليه قبل كل شيء القضاء على « إبراهيم بن الوليد – أبي اسحاق » ، فتم له ذلك بعد سبعين يوماً من وفاة يزيد ، ولكن نيران الثورة لم تلبث أن اندلعت في الكوفة بقيادة عبد الله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر ابن علي بن أبي طالب. وأمكن القضاء على هذه الثورة بعد جهد. ولكن حمص والشام أعلنتا تمردهما ضد مروان ، ثم أعلن سليمان ابن هشام الثورة ضد مروان بن محمد وأيده أهل الرصافة .

وتطلب إخماد هـــذه الثورات جهوداً جبارة (إذ تطلب إخضاع ثورة حمص حصارها عشرة أشهر ونصب نيفاً وثمانين منجنيقاً عليها) . واستمرت الثورة في العراق وخراسان . ما تكاد نارها تنطفىء في بلد حتى تندلع في بلد آخر .

وتفاقم الخلاف بين القيسية واليمنية وزادت قوة الخوارج والحرورية ولم يكن دعاة بني العباس في حاجة لما هو أكثر من ذلك ، إذ ضمن لهم مناخ الاضطراب الذي يريدونه لتنظيم دعوتهم وحشد قواتهم. وهكذا لم تمض أكثر من سنوات قليلة حتى بلغت

قوة العباسيين درجة من البأس والقوة أصبحت معها مقاومتها صعبة، وفي سنة (١٣٠ هـ = ٧٤٦ م) دخل أبو مسلم الخراساني بقواته مدينة مرو .

وبدأت الأحداث بالتسارع المذهل . ولم تمض سنة حتى اجتاحت قوات الثورة العباسية خراسان وسيطرت على العراق. ولم تفلح جهود مروان بن محمد – آخر الخلفاء الأمويين في إيقاف حشود العباسيين التي تقدمت حتى وصلت الزاب، ودارت معركة أظهرت فيها قوات الأمويين التخاذل والتمزق في حين أظهرت قوات العباسيين بقيادة عبدالله بن علي قدراً غير قليل من التصميم. وانتصر العباسيون ، وهرب مروان ومعه بعض أنصاره وأهله. وغنم العباسيون كل ما كان في معسكر مروان من سلاح وفير وأموال كثيرة [1] .

ومضى مروان إلى حران وبها أبان بن يزيد بن محمد بن مروان – ابن أخيه وعامله عليها – فأقام بها نيفاً وعشرين يوماً. ولكن عبد الله بن علي قاد قوات العباسيين ومضى لمطاردة مروان، فلما

---

(١) كان جيش مروان في معركة الزاب يضم ١٢٠ ألف مقاتل على ما تذكره المصادر التاريخية ، وعلى الرغم من ذلك ، فلم يتمكن هذا الجيش من خوض المعركة بسبب انهياره المعنوي . وعندما هرب مروان ، عيره من ولد سعيد بن العاص بقوله :

لج الفرار بمروان فقلت له ... عاد الظلوم ظليماً همه الهرب
أين الفرار وترك الملك إذ ذهبت ... عنك الهوينا فلا دين ولا حسب
فراشة الحلم فرعون العقاب وإن ... تطلب نداه فكلب دونه كلب

دنا من حران ، غادرها مروان ومعه أهله وولده وعياله ومضى منهزماً ، وخلف بمدينة حران أبان بن يزيد (وزوجته ابنة لمروان يقال لهـا أم عثمان) وقدم عبد الله بن علي فتلقاه أبان وأعلن تأييده للعباسيين وبايعه ودخل في طاعته فأمنه ومن كان بحران والجزيرة .

ومضى مروان حتى مر بقنسرين وعبد الله بن علي متبع له. ثم مضى من قنسرين إلى حمص . فتلقاه أهلها بالسمع والطاعة ، فأقام بها يومين أو ثلاثة ، ثم غادرها ، فلما رأى أهل حمص قلة من معه طمعوا فيه ، وقالوا : مرعوب منهزم ، فاتبعوه بعد ما رحل عنهم ، فلحقوه على أميال ، فلما رأى غبرة خيلهم ، أكمن لهم في واديين قائدين من مواليه (يقال لأحدهم يزيد والآخر مخلد). فلما دنوا منه وجاوزوا الكمينين ومضى الدراري صافهم فيمن معه وناشدهم ، فأبوا إلا مكاثرته وقتاله ، فنشب القتال بينهم ، وثار الكمينان من خلفهم ، فهزمهم وقتلهم حيلة حتى انتهوا إلى قريب من المدينة .

ومضى مروان حتى مرّ بدمشق ، وعليها الوليد بن معاوية ابن مروان وهو أيضاً ختن (صهر) لمروان (متزوج بابنة له يقال لها أم وليد) ، فمضى وخلّفه بها حتى قدم عبد الله بن علي عليه ، فحاصره أياماً ، ثم فتحت المدينة ، ودخلها عنوة معترضاً أهلها . وقتل الوليد بن معاوية فيمن قتل . وهدم عبد الله بن علي حائط مدينتها .

ومر مروان بالأردن فانضم إليه وإليها بن معه ، وسار إلى فلسطين، ثم إلى مصر، وعبد الله بن علي يطارده . إلى أن دارت المعركة الحاسمة في « بوصير » وقتل مروان بن محمد ومن كان معه ، وطويت صفحة العصر الأموي في بلاد الشام ، وأرسل رأس مروان إلى السفاح بالكوفة [1] .

لكن القصة لم تقف عند هذا الحد، فقد تفجّر الحقد في نفس السفاح وفي نفوس الفرس الذين أثملهم الانتصار فمضوا يتابعون أعمال الإبادة. وكان السفاح ، قد اتخذ من فارسي اسمه «سديف» مستشاراً له ومعيناً، ودخل سديف على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقد أكرمه السفاح ، فقال سديف :

لا يغرنك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دوياً
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أموياً

فقال سليمان : قتلتني يا شيخ ، ودخل السفاح وأخذ سليمان فقتل .

ودخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبدالله بن علي ، وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلاً على الطعام ، فأقبل عليه

---

(١) وتمثل أبو العباس السفاح بالبيت التالي :

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني

ابن الأثير – الكامل في التاريخ – دار الكتاب العربي – ٤ / ٣٢٨ و ٣٣٢ .

شبل واستثاره بأبيات من الشعر [1] فما كان من السفاح إلا أن أمر بهم عبد الله ، فضربوا بالعمد حتى قتلوا ، وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليهم ، وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً .

وأمر عبد الله بن علي ، بنبش قبور بني أمية بدمشق ،فنبش قبر معاوية بن أبي سفيان ، فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثل الهباء . ونبش قبر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد . ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته وكان لا يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحاً لم يبل منه إلا أرنبة أنفه فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه في الريح ،وتتبع بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم ولم يفلت منهم إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس فقتلهم بنهر أبي فطرس .

---

(١) كان مما قاله شبل بن عبد الله لاستثارة عبد الله بن علي . ما يلي :

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها ... بعد ميل من الزمان وباس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً ... واقطعن كل رقلة وغراس
ذلها أظهر التودد منها ... وبها منكم كحر المواسي
ولقد غاظني وغاظ سوائي ... قربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والأتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيداً ... وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران أضحى ... ثاوياً بين غربة وتناسي

وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان ، والغمر ابن يزيد بن عبد الملك ، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك. وسعيد بن عبد الملك وأبو عبيدة بن الوليد بن عبد الملك، وقيل ان إبراهيم بن يزيد المخلوع قد قتل معهم ، واستصفى كل شيء لهم من مال وغير ذلك ، فلما فرغ عبد الله بن علي من مصرعهم أنشد شعراً عبر فيه عن شماتته [1] وقيل ان سديفاً هو الذي أنشد هذا الشعر للسفاح ، ومعه كانت الحادثة وهو الذي قتلهم.

وقتلَ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس بالبصرة أيضاً جماعة من بني أميــة عليهم الثياب الموشاة المرتفعة ، وأمر بهم فجروا بأرجلهم فألقوا على الطريق فأكلتهم الكلاب . فلما رأى بنو أمية ذلك اشتد خوفهم وتشتت شملهم واختفى من قدر على الاختفاء [2] .

---

(١) ما قاله سديف (أو عبد الله بن علي) ما يلي في (ابن الأثير – دار الكتاب العربي – ٤ / ٣٣٣) .

بني أمية قـد أفنيت جمعكم فكيف لي منكم بالأول المـاضي
يطيب النفس ان النار تجمعكم عرضتم من لظاها شر معتاض
فنيتم لا أقـال الله عثرتـكم بليث غاب إلى الأعداء نهاض
إن كان غيظي لفوت منـكم فلقد منيت منكم بما ربي به راض

(٢) وجه العباس قوة لقتال الأمويين ، فانطلق قـائد القوة وهو ينشد شعراً يصور حال الأمويين :

يا آل مروان إن الله مهلككم ومبدل بكم خوفاً وتشريداً
لا عمر الله من إنشائـكم أحداً وبثكم في بلاد الخوف تطريداً

تلك هي لمحات خاطفة من مأساة رهيبة قد يصعب وصفها وتصويرها ، فقد تفجر الحقد دفعة واحدة وكما يحدث عادة في الفتن والثورات ، لم تعد للحياة الانسانية قيمتها ، وكان لزاماً على كل من يحمل اسم « أمية » أو ينتسب لها دفع الثمن من أجل عمل لا علاقة له به ، (فالآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون) كما يقول المثل العامي. وهكذا سقط أبناء الأمويين ضحايا أعمال أسلافهم وأجدادهم . وكان ثمناً فادحاً ، دفع الأمويون ثمنه المباشر ، ودفع العرب جميعاً ثمنه بصورة غير مباشرة . ودفع العباسيون ثمنه الكامل بعد ذلك .

٢ ــ الاندلس قبل العهد الاموي

لم يكن الغزو والفتح هو هدف العرب المسلمين منذ انطلقوا من جزيرتهم ، وإنما كان هدفهم إقامة المجتمع الإسلامي ونشر الإسلام وتنظيم الدولة العربية الإسلامية . وقد اضطلع الأمويون بالقسط الأوفى والنصيب الأكبر من نشر الإسلام وتنظيم الدولة الإسلامية حتى دقت سنابك خيولهم حدود الصين شرقاً ، وبلاد الغال « فرنسا » غرباً .

ولقد جاء فتح الأندلس في الفترة من ٩٢ــ ٩٥ هـ (٧١١ – ٧١٤م) على يد القائدين الشهيرين موسى بن نصير وطارق بن زياد. ولقد أثار فتح الأندلس المشاعر في الشرق والغرب على حد سواء. وألهب الحماسة (مما دفع على سبيل المثال الشاعر الانكليزي « روبرت سوزي » إلى النطق بقصيدة يشيد فيها بقوة المسلمين وروحهم المعنوية) [١] . إلا أن الأمور لم تعرف الاستقرار في

---

(١) أورد « عبدالله عنان » في كتابه تاريخ العرب في اسبانيا – الطبعة الأولى عام ١٩٢٤ ص٣٥ نص القصيدة كالتالي: جمع لا يحصى – من عرب =

الأندلس ، وزاد الأمر سوءاً بسبب انصراف أمراء بني أمية إلى مجابهة متاعبهم الداخلية ، ثم متاعبهم على جبهة خراسان، الأمر الذي انعكس بصورة سلبية على صفحة الأندلس ، فتعاقب على حكم الأندلس منذ ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير أول ولاة الأندلس سنة ٩٦ هـ = ٧١٤ م ، وحتى سنة ١٣٨ هـ = ٧٥٥ م . عدد من الولاة بلغ ٢٠ والياً. لم تدم فترة ولاية بعضهم أكثر من شهور قليلة في حين استمرت ولاية البعض الآخر لمدة سنوات عديدة .

ووقعت على جبهة الأندلس مجموعة من الأحداث المثيرة، منها ما كان فتن وثورات داخلية ، ومنها ما كان في مجال الصراع على جبهة الفرنج ، ومنها مـا كان على مستوى الصراع مع أهل

= وبربر وشآم وروم.
وفرس وقبط وتتار عصبة واحدة .
يفيض شبابها إيماناً فتياً وطيد الدعائم .
وتستعر حماسة برائع ماضيها .
تتوق إلى سلب مدن النصرانية واثقة من هول بأسها .
ولم يك الزعماء – أقل ثقة بالنصر ، وقد أخلصوا في محالفتهم .
يتيهون كثيراً بتلك القوة الجارفة .
التي وثقوا من أنها حيث اندفعت .
تستمر ظافرة ، دون منازع ، إلى الأمام .
حتى يصبح الغرب مقهوراً كالشرق .
يطأطىء الرأس إجلالاً لمحمد .
وينهض الحجاج من أقاصي المتجمد .
ليطؤوا بأقدام التوبة والإخلاص ، الرمال المحرقة .
المتناثرة فوق صحارى العرب وأرض مكة الصخرية .

البلاد الأصليين، الأمر الذي كاد يتهدد عملية فتح الأندلس بكاملها ويعرضها للفشل .

وقد ظهر خلال فترة عهد الولاة بعض القادة الذين نجحوا بإيجاد الحلول المناسبة للتناقضات القائمة، وتوجيه الجهد نحو العدو الخارجي ، إلا أن تلك الجهود لم تؤد إلى نتائج مثمرة ، لأنها لم تكن قائمة على سياسة ثابتة من جهة، كما أنها كانت تفتقر إلى القوة اللازمة ، والتي تتناسب مع الهدف الكبير . وقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند بعض الظواهر الرئيسية لتلك الفترة.

آ – الموقف على جبهة الفرنج

عندما فتح المسلمون الأندلس، كانت فرنسا (أو بلاد الغال) خاضعة لحكم الملوك الكسالى (أو الميروفنجيين) [1] . ولم تكن الحدود بين اسبانيا التي أصبحت تحت حكم المسلمين وبلاد الغال مماثلة لما هي عليه اليوم ، فقد كانت حدود اسبانيا (أيام الفتح الإسلامي) تمتد إلى ما وراء جبال البيرنة (أو البرتات أو البرانس

(١) الملوك الكسالى أو الميروفنجيون (نسبة إلى ملك الفرنج) ميروفي Mérovée الذي ملك الفرنج (٤٤٨ – ٤٥٧ م) وقادهم في معركة حقول كاتالونيا Champ Catalaunique الممتدة بين شالون على المارن وتروي. وأعطى اسمه للأسرة المالكة الميروفنجية التي حكمت بلاد الغال القديمة حتى سنة ٧٥١م. وقد أطلق على الميروفنجيين اسم الملوك الكسالى، لأنهم تركوا السلطة لوزرائهم في الفترة الأخيرة من حكمهم، فنشأت أسر متوازية تتنازع على مركز الصدارة مما ساعد ببيان الهيريستالي وزير قصر مملكة اوسترازية على سحق جيش اوسترازية ، وإعادة تنظيم المملكة والتمهيد لقيام حكم الكارولنجيين .

كما كان يسميها المسلمون) فكان يتبعها من أرض فرنسا مقاطعة روسيون (وهي المقاطعة المسماة اليوم بالبيرنة الشرقية) [1] ، كما كان يتبعها أيضاً قسم من «اللانفدوك» [2] و« البروفانس » [3] .

وكان موسى بن نصير قد أوغل في الفتح على محور « ناربون - أو - أربونة » [4] حتى وصل مدينة ليون ، تاركاً لخلفائه من بعده متابعة التقدم على المحاور الأخرى .

وقد تولى إمارة الأندلس بعد الفتح « عبد العزيز بن موسى بن نصير » ، لكن أمرته لم تستمر طويلاً ، فقد تمّ اغتياله سنة ٩٦ هـ = ٧١٥ م ، واتفقت كلمة أشبيليا على تسليم الإمارة في الأندلس إلى يوسف بن حبيب اللخمي «ابن اخت موسى بن نصير» لكن ولايته لم تستمر لمدة تزيد على الستة أشهر ، فتولى حكم الأندلس والي أفريقية الحر بن عبد الرحمن الثقفي الذي بقي على ولاية الأندلس لمدة سنتين وثمانية أشهر ، عمل خلالها على تنظيم

---

(١) روسيون Roussillon مقاطعة مركزها بيربيتيان Perpignan استولت عليها فرنسا عام ١٦٥٩ م .

(٢) اللانفدوك Languedoc هي المقاطعة الواقعة إلى الشمال من روسيون ومركزها تولوز ، استولت عليها فرنسا عام ١٢٧١ م .

(٣) البروفانس Provence مقاطعة جنوب فرنسا تضم جبال الألب السفلى ومصب نهر الرون وبلاد الفار والفوكلوز .

(٤) ناربون Narbonne . مدينة تقع في البيرنة قريباً من البحر الأبيض المتوسط . وقد أفاد السمح بن مالك الخولاني من موقعها الهام جيو استراتيجياً فجعلها قاعدة متقدمة للمسلمين من أجل غزو بلاد الغال .

الثغور وإقامة الحاميات وإدارة شؤون البلاد .

وعندما تولى الخلافة في دمشق عمر بن عبد العزيز ، أظهر اهتماماً خاصاً بالأندلس، ففكر في تعيين والٍ مستقل لها ، ووقع اختياره على السمح بن مالك الخولاني[1]، الذي وصل إلى الأندلس في سنة ١٠٠ هـ – ٧١٨ م . فانصرف إلى تنظيم البلاد . وعندما اطمأن إلى قوته الداخلية ، حشد قواته في « ناربون » ومضى لغزو ما وراء الدروب الأندلسية (حيث بلاد الغال) . فتقدم على محور تارن وغارون ، وأخضع سبتمانية وبروفانس ، وتوجه نحو الشمال الغربي ، وأوغل في تقدمه حتى وصل تولوز حيث دارت معركة حاسمة (حملت اسم يوم التروية) وهو يوم ٩ حزيران (يونيو) سنة ٧٢١م (١٠٢ هـ)، وانتهت المعركة باستشهاد السمح

---

(١) جاء في أخبار مجموعة ص ٣٢ حول تعيين السمح بن مالك الخولاني ما يلي: «كان من عادة الخلفاء (الأمويين) إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق أن يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه ، وحتى يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو ، ما فيها دينار ولا درهم إلا من فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية ، وإلا بعد أن أخذ كل ذي حق حقه، فأتى وفد أفريقية بخراجها .. في زمن سليمان ، وأمروا أن يحلفوا ، فحلف ثمانية ونكل سهيل ابن عبيد الله مولى بني مخزوم ، ونكل بنكوله السمح بن مالك الخولاني ، فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما، ثم ضمهما إلى نفسه، فلما ولي عمر ولى سهيل أفريقية وولى السمح الأندلس ، وأمره أن يخمس أرضها وعقارها، ويقر القرى في يدي غنامها ، بعد أن يأخذ الخمس ، وأن يكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها ، وكان رأيه انتقال أهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين » .

وتمزق جيش المسلمين، فتولى عبدالرحمن الغافقي مهمة الانسحاب بفلول الجيش إلى قاعـدة الانطلاق في ناربون « أربونة » . وكان سبب الهزيمة يعود إلى تفوق قوات الفرنج تفوقاً كبيراً .

جاء بعد ذلك « **عنبسة بن سحيم الكلبي** » والياً على الأندلس في عام ١٠٢ هـ – ٧٢١ م . فأمضى أربعة أعوام في إعادة التنظيم والاستعداد للحرب ، ثم قاد قوات المسلمين إلى قاعدة الانطلاق « ناربون » وبدأ عملياته بالاستيلاء على إقليم « سبتمانية » ثم توجه إلى حوض الرون ، وتابع تقدمه في إقليم برغنديا ، واستولى على مدينة « قرقشونة »(١) ، وانطلق منها شمالاً فاحتل ماكون وشالون ، وتابع تقدمه حتى سانس على بعد ثلاثين كيلو متراً من لوتس « باريس » .

واكتفى عنبسة بما حققه من نصر ، فقرر الرجوع إلى قاعدته إلا أن قوات الفرنج كانت قد أخذت في التجمع ، وأخذت عليه طريق عودته ، فاضطر إلى خوض معركة حاسمة ضدها ، وكان التفوق في ميزان القوى كبيراً لمصلحة الفرنج ، فاستشهد عنبسة وتمزق جيش المسلمين ، في شهر شعبان ١٠٧ هـ – ٧٢٥ م .

وتوقفت بعد ذلك عمليات غزو مـا وراء الدروب ، إلى أن جاء **عبد الرحمن الغافقي**، فقاد المسلمين في صيف ١١٤هـ=٧٣٢م فتقدم حتى مدينة تور، حيث دارت معركة بلاط الشهداء المشهورة.

---

(١) قرقشونة « كاركاسون حالياً Carcassonne » جنوب تولوز ، على طول خط عرض غرينيتش في جنوب فرنسا، وقريبة من الحدود الاسبانية.

واستشهد عبدالرحمن في المعركة، وانسحبت فلول جيش المسلمين إلى الأندلس .

ولم تكن نتائج معركة بلاط الشهداء خطيرة على النحو الذي تصوره المصادر الغربية . إلا أن هذه المعركة قد أضافت إلى التجارب السابقة براهين جديدة تؤكد تعاظم قدرة الفرنج وزيادة قدراتهم القتالية وتأثيرهم على مراكز القوى المضادة للمسلمين في الأندلس ذاتها، مما كان يفرض زيادة القدرة لدى مسلمي الأندلس. ولم يكن تحقيق ذلك ممكناً نظراً لما كانت تعانيه الدولة الأموية من اضطراب في أيامها الأخيرة .

ب – مراكز القوى المضادة في الأندلس

ذكرت المصادر العربية : « ان أول من جمع ذل النصارى بالأندلس بعد غلبة العرب لهم، علج يقال له «بلاي» [1] من أهل أشتوريش من جليقية، كان رهينة عن طاعة أهل بلده، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفي – الثاني من أمراء العرب بالأندلس، وذلك في السنة السادسة من افتتاحها (٩٨ هـ) » .

وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن، فطردوه وملكوا البلاد ... وفي أيام عنبسة بن سحيم الكلبي قام بجليقية

---

(١) بلاي : Pelayo وباللاتينية Pelagius – أول من قاد النصارى ضد المسلمين. وتوفي سنة ١٣٣هـ (٧٥١ م) وخلفه زوج ابنته الفونسو Alphonso ابن بدرو Pedro وكان اسم ابنة بلاي (أرمنسندا : Ermensinda) . نفح الطيب – دار صادر – بيروت ٣/١٧ و٤/٣٥٠ - ٣٥١ .

العلج الخبيث « بلاي » فهاب على العلوج طول الفرار ، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر ودافع عن أرضه ، ومن وقته أخـذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عما بقي من أرضهم والحماية عن حريمهم ، وقـد كانوا لا يطمعون في ذلك ، وقيل : إنه لم يبق بأرض جيليقية قرية ، فما فوقها لم تفتح إلا الصخرة الذي لاذ بها هذا العلج، ومات أصحابه جوعاً ، إلى أن بقي في مقدار ثلاثين رجلا ونحو عشر نسوة . وما لهم عيش إلا من عسل النحل في جباح (خلايا) معهم في خروق الصخرة، وما زالوا ممتنعين بوعرها إلى أن أعيا المسلمين أمرهم ، واحتقروهم . وقالوا : ثلاثون علجاً ما عسى أن يجيء منهم ؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك في القوة والكثرة ، والاستيلاء ما لا خفاء به . وملك بعده أذفونش « الفونسو » جد عظماء الملوك المشهورين بهذه السمة .

ويظهر ذلك أن الوضع الداخلي في الأندلس بات يحتاج لقيادة تتوافر لهـا كفاءة قيادية عالية حتى تتمكن من مجابهة الأخطار الداخلية المرتبطة بالأخطار الخارجية .

ج ـ الموقف على جبهة مسلمي الأندلس

ما ان استقر المسلمون في الأندلس حتى ظهرت الصراعات التي كان من أخطرها الصراع بين المسلمين القدامى من العرب والمسلمين الجدد من البربر ، ولم يقف الصراع عند هذه الحدود ، وإنما تجاوزها إلى بعث الصراعات بين المضرية والقيسية .

وقد تفاقمت الصراعات حتى بلغت هشام بن عبد الملك فيما ذكره ابن حيان على النحو التالي: « لما انتهى إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، مـا كان من أمر خوارج البربر بالمغرب الأقصى والأندلس ، وخلعهم لطاعته ، وعيثهم في الأرض ، شق عليه ، فعزل عبيد الله بن الحبحاب عن أفريقية ، وولى عليها كلثوم بن عياض القشيري ، ووجه معه جيشاً كثيفاً لقتالهم ، كان فيه مع ما انضاف إليـه من جيوش البلاد التي صار عليها سبعون ألفاً . ومع ذلك فإنه لما تلاقى مع ميسرة البربري المدعي للخلافة هزمه ميسرة ، وجرح كلثوم ولاذ بسبتة ، وكان بلج ابن أخيه معه . فقامت قيامة هشام لما سمع بما جرى عليه ، فوجه لهم حنظلة بن صفوان ، فأوقع بالبربر ففتح الله عليه » .

ولما اشتد حصار بلج وعمه كلثوم ومن معهما من فل أهل الشام بسبتة وانقطعت عنهم الأقوات ، وبلغوا من الجهد إلى الغـاية ، استغاثوا باخوانهم من عرب الأندلس ، فتثاقـل عنهم صاحب الأندلس « عبد الملك بن قطن » لخوفه على سلطانه منهم ، فلما شاع خبر ضرهم عند رجال العرب أشفقوا عليهم ، فأغاثهم زياد ابن عمرو اللخمي بمركبين مشحونين مبرة أمسكا من أرماقهم ، فلما بلغ ذلك عبد الملك بن قطن ضربه سبعمائة سوط ، ثم اتهمه بعـد ذلك بتضريب الجند عليه ، فسمل عينيه ثم ضرب عنقه وصلبه وصلب عن يساره كلباً .

واتفق في هذا الوقت أن برابر الأندلس لما بلغهم ما كان من

ظهور برابر العدوة على العرب ، انتقضوا على عرب الأندلس . واقتدوا بما فعله إخوانهم ، ونصبوا عليهم إماماً ، فكثر إيقاعهم بجيوش ابن قطن ، واستفحل أمرهم ، فخاف ابن قطن أن يلقى منهم ما لقي العرب ببر العدوة من إخوانهم ، وبلغه أنهم قد عزموا على قصده . فلم ير أجدى من الاستعداد بصعاليك عرب الشام (أصحاب بلج الموتورين) فكتب لبلج ، وقد مات عمه كلثوم في ذلك الوقت ، فأسرعوا إلى إجابته ، وكانت أمنيتهم ، فأحسن إليهم ، وأسبغ النعم عليهم ، وشرط عليهم أن يأخذ منهم رهائن ، فإذا فرغوا له من البربر جهزهم إلى أفريقية ، وخرجوا له عن أندلسه . فرضوا بذلك ، وعاهدوه عليه ، فقدم عليهم وعلى جنده ابنيه (قطنا وأمية) والبربر في جموع لا يحصيها غير رازقها ، فاقتتلوا قتالاً صعب فيه المقام ، إلى أن كانت الدائرة على البربر ، فقتلهم العرب بأقطار الأندلس حتى ألحقوا فلهم بالثغور ، وخفوا عن العيون .

فكر الشاميون ، وقد امتلأت أيديهم من الغنائم ، فاشتدت شوكتهم ، وثابت همتهم ، وبطروا ، ونسوا العهود ، وطالبهم ابن قطن بالخروج عن الأندلس إلى أفريقية ، فتعللوا عليه ، وذكروا صنيعه بهم أيام انحصارهم في سبتة ، وقتله الرجل الذي أغاثهم بالميرة ، فخلعوه . وقدموا على أنفسهم أميرهم بلج بن بشر ، وتبعه جند ابن قطن ، وحملوا عليه في قتل ابن قطن ، فأبى ، فثارت اليمانية وقالوا : قد حميت لمضرك ، والله لا نطيعك ، فلما خاف

تفرق الكلمة ، أمر بابن قطن فأخرج إليهم وهو شيخ كبير كفرخ نعامة ، قد حضر وقعة الحرة مع أهل اليمامة ، فجعلوا يسبونه ويقولون له: أفلتّ من سيوفنا يوم الحرة، ثم طالبتنا بتلك الترة. فعرّضتنا لأكل الكلاب والجلود ، وحبستنا بسبتة محبس الضنك حتى أمتّنا جوعاً ، فقتلوه وصلبوه كما تقدم .

وكان أمية وقطن ابناه ، عندما خلع قد هربا وحشدا لطلب الثأر ، واجتمع عليهما العرب الأقدمون والبربر ، وصار معهم عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري كبير الجند ، وكان في أصحاب بلج ، فلما صنع بابن عمه عبد الملك ما صنع، فارقه، فانحاز فيمن يطلب ثأره،وانضم إليهم عبدالرحمن ابن علقمة اللخمي صاحب أربونة ، وكان فارس الأندلس فيوقته فأقبلوا نحو بلج في مائة ألف أو يزيدون، وبلج قد استعد لهم في مقدار اثني عشر ألفاً سوى عبيد له كثيرة وأتباع من البلديين ، فاقتتلوا ، وصبر أهل الشام صبراً لم يصبر مثله أحد قط ، وقال عبد الرحمن بن علقمة اللخمي : أدوني بلجاً ؟ فوالله لأقتلنه أو لأموتن دونه ، فأشاروا إليه نحوه، فحمل بأهل الثغر حملة انفرج لها الشاميون، والراية في يده ، فضربه عبد الرحمن ضربتين مات منهما بعد ذلك بأيام قلائل .

ثم إن البلديين انهزموا بعد ذلك هزيمة قبيحة ، واتبعه الشاميون يقتلون ويأسرون ، فكان عسكراً منصوراً مقتولاً أميره . وكان هلاك بلج في شوال سنة أربع وعشرين ومائة ،

وكانت مدتــه أحد عشر شهراً ، وسريره قرطبة ، والعرب الشاميون الداخلون معه إلى الأندلس يعرفون عند أهل الأندلس بالشاميين، والذين كانوا في الأندلس قبل دخوله يشهرون بالبلديين.

ولما هلك بلج قدم الشاميون عليهم بالأندلس ثعلبة بن سلامة العاملي ، وقد كان عندهم عهد الخليفة هشام بذلك ، فسار فيهم بأحسن سيرة ، ثم إن أهل الأندلس الأقدمين من العرب والبربر سموا بعد الوقعة لطلب الثأر ، فآل أمره معهم إلى أن حصروه بمدينة ماردة ، وهم لا يشكون في الظفر ، إلى أن حضر عيد تشاغلوا به ، فأبصر ثعلبة منهم غرة وانتشاراً وأشراً (غروراً) بكثرة العــدد والاستيلاء ، فخرج عليهم في صبيحة عيدهم وهم ذاهلون، فهزمهم هزيمة قبيحة ، وأفشى فيهم القتل ، وأسر منهم ألف رجــل ، وسبى ذريتهم وعيالهم ، وأقبل إلى قرطبة من سبيهم بعشرة آلاف أو يزيدون ، حتى نزل بظاهر قرطبة يوم خميس وهو يريد أن يحمل الأسارى على السيف بعد صلاة الجمعة.

وأصبح الناس منتظرين لقتل الأسارى ، فإذا بهم قــد طلع عليهم لواء فيه موكب ،فنظروا فإذا أبو الخطار «حسام بن ضرار الكلبي » قد أقبل والياً على الأندلس من قبل حنظلة بن صفوان صاحب أفريقية . « والخليفة حينئذٍ الوليد بن يزيد بن عبد الملك ابن مروان » ، وذلك في شهر رجب سنة خمس وعشرين ومائة (٧٤٣ م) بعد عشرة أشهر وليها ثعلبة بن سلامة .

وكان أبو الخطار « حسام بن ضرار الكلبي » مــع فروسيته

شاعراً محسناً ، أظهر العدل في أول ولايته ، فدانت له الأندلس إلى أن مالت به العصبية اليمانية على المضرية ، فهاج الفتنة العمياء. وكان سبب هذه الفتنة أن أبا الخطار بلغ به التعصب لليمانية أن اختصم عنده رجل من قومه مع خصم له من كنانة ، كان أبلج حجة من ابن عم أبي الخطار . فمال أبو الخطار مع ابن عمه ، فأقبل الكناني إلى الصميل بن حاتم الكلابي أحد سادات مضر ، فشكا له حيف أبي الخطار . وكان « الصميل » أبياً للضيم حامياً للعشيرة ، فدخل على أبي الخطار وأقضّ عتابه ، فنجهه أبو الخطار وأغلظ له ، فردّ الصميل عليه ، فأمر به أبو الخطار ، فأقيم وَدُعَ قفاه حتى مالت عمامته ، فلما خرج قال له بعض من على الباب : أبا جوشن ! ما بال عمامتك مائلة؟ فقال : إن كان لي قوم فسيقيمونها.

وأقبل إلى داره ، فاجتمع إليه قومه حين بلغهم ذلك متمضين فباتوا عنده . فلما أظلم الليل ، قال : ما رأيكم فيما حدث عليّ فإنه منوط بكم؟ فقالوا : أخبرنا بما تريد ، فإن رأينا تبع رأيك. فقال: أريد والله إخراج هذا الأعرابي من هذا السلطان على ما خيّلت ، وأنا خارج لذلك عن قرطبة ، فإنه ما يمكنني ما أريد إلا بالخروج فإلى أين ترون أقصد ؟ فقالوا : إذهب حيث شئت ، ولكن لا تأت أبا عطاء القيسي فإنه لا يواليك على أمر ينفعك .

وكان أبو عطاء هذا سيداً مطاعاً يسكن بإستجة ، وكان مشاحناً للصميل مسامياً له في القدر ، فسكت عند ذكره أبو بكر ابن الطفيل العبدي ، وكان من أشرافهم ، إلا أنه كان حديث

السن ، فقال له الصميل : ألا تتكلم ؟ فقال : أتكلم بواحدة ما عندي غيرها ، قال : وما هي ؟ قال : إن عَدَوْت إتيان أبي عطاء وشتتت أمرك به، لم يتم أمرنا وهلكنا ، وإن أنت قصدته لم ينظر في شيء مما سلف بينكما ، وحركته الحمية لك ، فأجابك إلى ما تريد، فقال له الصميل : أصبت الرأي ، وخرج من ليلته.

وقام أبو عطاء في نصرته على مـا قدره العبدي ، وعمد إلى ثوابة بن يزيد الجذامي أحد أشراف اليمن وساداتهم ، وكان ساكناً بموررور ، وقد استفسد إليه أبو الخطار ، فأجابهما في القيام والتقدم على المضرية ، فاجتمعوا في شذونة ، وآل الأمر إلى أن هزموا أبا الخطار على وادي لكة ، وحصل أسيراً في أيديهـم فأرادوا قتله ، ثم أرجأوه ، وأوثقوه وأقبلوا به إلى قرطبة ، وذلك في رجب سنة ١٢٧ هـ بعد ولاية أبي الخطار بسنتين.

ولما سجن أبو الخطار في قرطبة ، امتعض له عبد الرحمن بن حسان الكلبي ، فأقبل إلى قرطبة ليلاً في ثلاثين فارساً معهم طائفة من الرجالة ، فهجموا على الحبس وأخرجوه منه، ومضوا به إلى غرب الأندلس ، فعاد في طلب سلطانه ، ودب في يمانيته حتى اجتمع له عسكر أقبل بهم إلى قرطبة ، فخرج إليه ثوابة ومعه الصُميل، فقام رجل من المضرية ليلاً فصاح بأعلى صوته : يا معشر اليمن! ما لكم تتعرضون إلى الحرب وترون المنايا عن أبي الخطار؟ أليس قـد قدرنا عليه لو أردنا قتله لفعلنا ، لكننا مننا وعفونا وجعلنا الأمير منكم ، أفلا تفكرون في أمركم ، فلو أن الأمير من

غيركم عُذرتم ، ولا والله لا نقول هذا رهبة منكم ولا خوفاً لحربكم ولكن تحرجاً من الدماء ورغبة في عافية العامة ، فتسامع الناس به ، وقالوا : صدق. فتداعوا للرحيل ليلاً فما أصبحوا إلا على أميال.

وولي الأندلس ثوابة بن سلامة الجذامي ، ولما اتفقوا عليه ، خاطبوا بذلك عبدالرحمن بن حبيب صاحب القيروان ، فكتب إليه بعهد الأندلس ، وذلك سلخ رجب سنة ١٢٧ هـ. وقام بأمره كله الصميل ، واجتمع عليه أهل الأندلس ، وأقام والياً سنة أو نحوها ، ثم هلك فولي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب ابن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري ، وجده عقبة بن نافع صاحب أفريقية وباني القيروان ، وقد اجتمع عليه أهل الأندلس بإشارة من الصميل لسبب أنه قرشي رضي به الحيان ، فرفعوا الحرب ، ومالوا إلى الطاعة. فدانت له الأندلس في ربيع الآخر سنة ١٢٩ هـ .

ولكن مـا أن سمع أبو الخطار بتقديمه حتى حرك يمانيته ، فأجابوا دعوته ، فأدى ذلك إلى وقعة شقندة بين اليمانية والمضرية ، ويقال : أنه لم يك بالمشرق ولا بالمغرب حرب أصدق منها جلاداً ولا أصبر رجالاً ، طال صبر بعضهم على بعض ، إلى أن فني السلاح وتجاذبوا بالشعور ، وتلاطموا بالأيدي وكلّ بعضهم عن بعض .

وثابت للصميل غرة في اليمانية في بعض الأيام ، فأمر بتحريك أهل الصناعات بأسواق قرطبة ، فخرجوا في نحو أربعمائة رجل من أنجادهم ، بما حضرهم من السكاكين والعصي ليس فيهم حامل

رمح ولا سيف إلا قليلا ، فرماهم على اليمانية وهم على غفلة، وما فيهم من يبسط يداً لقتال ، ولا ينهض للدفاع، فانهزمت اليمانية، ووضعت المضرية السيف فيهم ، فأبادوا منها خلقاً ، واختفى أبو الخطار تحت سرير رحى « جسر طاحونة » فقبض عليه وجيء به إلى الصميل فضرب عنقه »[1] .

تلك هي ملامح عامة في صورة الموقف الخطير الذي كانت عليه الأندلس في عهد الولاة ، وهي ملامح مثيرة للفزع في قلوب أقوى الرجال . أخطار خارجية ، وأخطار داخلية ، ويبقى أخطر ما فيها تمزق قوات المسلمين شيعاً وقبائل أنهكتها الحروب المتلاحقة ، واستنزفت قوتها الصراعات المستمرة . حتى بات من المشكوك فيه ، أن يصمد المسلمون لاعدائهم الخارجيين . وبات وضع الاندلس بحاجة للانقاذ مما هو فيه . ولم يكن باستطاعة الأمويين في الشام ، تقديم دعم حقيقي بعد أن أصبحت الاخطار المحيقة بهم تتهدد وجودهم،ثم زاد الامر سوءاً عندما طويت أعلامهم ، وأبيدت قواتهم وارتفعت الراياتالسوداء (رايات العباسيين) وهيتسحق بسنابكخيولها وأسنة رماحها كل ما يمت إلى الامويين بصلة من النسب أو القرابة . حتى القبور لم تسلم من الحقد فتم نبشها ، وحتى الاموات لم يسلموا من الاذى ، فحملت أجداثهم وأحرقت لتذروها الرياح في كل اتجاه .

---

(١) نفح الطيب - المقري - دار صادر - بيروت ٣٠/٢٠ - ٢٦ .

٣ ــ الرحلة الشاقة
وإقامة الدولة الاموية في الاندلس

ما أبعد الشقة بين بلاد الشام والأندلس ، وما أشد وعورة الطريق للسائر وحده، وما أقسى الرحلة وما أثقل وطأتها عندما يضطر الراحل لمسيرتها ، لا رفيق له إلا وجيب قلبه ، ولا أنيس له غير ظله ، في الصحارى المقفرة الموحشة . والسهول الفسيحة المترامية الأطراف . ويبقى أصعب مـا في ذلك هو السير تحت كابوس الخوف وتوقع خطر المجهول ، في كل خطوة ، وفي كل مرحلة ، وفي كل وقت . والأمل بعد ذلك في المستقبل ضعيف ، فما هو الحافز الذي يمكن له أن يدفع إنساناً لاحتمال كل الصعوبات والأخطار ، واجتياز الوهاد والقفار سعياً وراء هدف مجهول وأمل غامض ؟ ذلك هو حال عبد الرحمن الداخل في رحلته الشاقة ، ولكن هل كان عبد الرحمن محروماً فعلاً من الأمل ؟ وما هو الأمل الذي رافق عبد الرحمن في بداية رحلته ؟

لقد وفر عبد الرحمن على الباحثين عناء البحث ،فذكر بنفسه

بداية رحلته بقوله : « نسب إلى مسلمة بن عبد الملك أنه كان يخبر بأمور الحدثان والملاحم ، وكان يرى أن نهاية بني أمية قد اقتربت ، وانه تنبأ بظهور عبد الرحمن ، وسمع عبد الرحمن من مسلمة ذلك مشافهة ، فكان يحدث نفسه بذلك ، وكان قومه يتحينون له ملكاً بالمغرب ويرون فيه علامات لذلك ...

«ولما وقع الاختلال في دولة بني أمية واشتد الطلب عليهم ، فرّ عبد الرحمن ، ولم يزل في فراره متنقلاً بأهله وولده إلى أن حل بقرية على الفرات ذات شجر وغياض ، يريد المغرب ، ويصف عبد الرحمن ما حدث له بعد ذلك فيقول : وإني لجالس يوماً في تلك القرية ، في ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بي ، وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدامي وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها ، إذ دخل الصبي من باب البيت فازعاً باكياً فأهوى إلى حجري ، فجعلت أدفعه لما كان بي ، ويأبى إلا التعلق ، وهو دهش ، يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع ، فخرجت لأنظر ، فإذا بالروع قد نزل بالقرية ، ونظرت فإذا بالرايات السود عليها منحطة ، وأخ لي حديث السن كان معي ، يشتد هارباً ويقول لي : النجاء يا أخي ، فهذه رايات المسودة ، فضربت بيدي على دنانير تناولتها ، ونجوت بنفسي والصبي أخي معي ، وأعلمت أخواتي بتوجهي ومكان مقصدي ، وأمرتهن أن يلحقنني ومولاي بدر معهن ، وخرجت فكمنت في موضع ناء عن القرية ، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار ، فلم تجد أثراً ،

ومضيت ولحقني بدر ، فأتيت رجلا من معارفي بشط الفرات ، فأمرته أن يبتاع لي دواب وما يصلح لسفري، فدل علي عبد سوء له العامل ، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا ، فخرجنا واشتددنا في الهرب ، فسبقناها إلى الفرات ، فرمينا فيه بأنفسنا ، والخيل تنادينا من الشط : ارجعا لا بأس عليكما، فسبحت حائناً لنفسي وكنت أحسن السبح ، وسبح الغلام أخي ، فلما قطعنا نصف الفرات قصّر أخي ودهش، فالتفت إليه لأقوّي من قلبه، وإذا هو قد أصغى إليهم ، وهم يخدعونه عن نفسه ، فناديته : تُقتَل يا أخي ، إليّ إليّ ، فلم يسمعني ، وإذا هو قد اغتر بأمانهم ، وخشي الغرق، فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا الفرات، وبعضهم قد همّ بالتجرد للسباحة في أثري ، فمنعه أصحابه عن ذلك ،فتركوني، ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه ،ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فاحتملت فيه ثكلا ملأني مخافة ، ومضيت إلى وجهي أحسب أني طائر وأنا ساع على قدميّ . فلجأت إلى غيضة أشبة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ، ثم خرجت أؤم المغرب »(١) ،

تلك هي بداية الرحلة وذلك هو زادها لشاب لم يكد يتجاوز العشرين من عمره ، فقد ولد بالعلياء من تدمر وقيل بدير حنا من أرض دمشق في سنة ثلاث عشرة ومائة، ومات أبوه في أيام أبيه هشام سنة ثماني عشرة عن إحدى وعشرين سنة ، وكفله

---

(١) نفح الطيب - ١ / ٣٧٣ - ٣٣٤ و ٣ / ٢٧ - ٥٤ .

وإخوته جدهم هشام، ووهب لعبد الرحمن هذا جميع الأخماس التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس، وأقطعه إياها . وكان اسم أبيه « معاوية » وأما أمه فهي أم ولد بربرية اسمها « راح » .

ولم تكن رعاية هشام لحفيده عبد الرحمن ، وحدبه عليه ، وتخصيص الأموال اللازمة له ولأخوته هي كل ما قدمه الجد لحفيده ، وإنما قدم له ما هو أثمن من ذلك . لقد قدم له الأمل الكبير الذي على هديه بات يسير ومن ضيائه تشرق له الدنيا وتستنير .

« ويحكى أن عبد الرحمن بن معاوية دخل يوما على جده هشام . وعنده أخوه مسلمة بن عبد الملك ، وكان عبد الرحمن إذ ذاك صبيا ، فأمر هشام أن ينحني عنه فقال له مسلمة : دعه يا أمير المؤمنين ، وضمه إليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ! هذا صاحب بني أمية ، ووزرهم عند زوال ملكهم ، فاستوص به خيرا ، قال عبد الرحمن : فلم أزل أعرف مزية من جدي من ذلك الوقت » .

ومضى عبدالرحمن بن معاوية على الدرب الوعرة حتى وصل أفريقية ، وألحقت به أخته شقيقته أم الأصبغ مولاه بدراً ومولاه سالماً ومعهما دنانير للنفقة وقطعة من جوهر ، فنزل بأفريقية وقد سبقه إليها جماعة من فل بني أمية ، وكان عند واليها عبد الرحمن ابن حبيب الفهري يهودي حدثاني صحب مسلمة بن عبد الملك ، وكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشي المرواني الذي هو من

أبناء ملوك القوم . واسمه عبد الرحمن ، وهو ذو ضفيرتين يملك الأندلس ويورثها عقبه ، فاتخذ الفهري عند ذلك ضفيرتين أرسلها رجاء أن تناله الرواية، فلما جيء بعبد الرحمن ونظر إلى ضفيرتيه قال لليهودي : ويحك، هذا هو ، وأنا قاتله . فقال له اليهودي: إنك إن قتلته فما هو به ، وإن غُلبت على تركه إنه هو .

وثقل فلُّ بني أمية على ابن حبيب صاحب أفريقية ، فطرد كثيراً منهم مخافة ، وتجنى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد استجارا به فقتلها ، وأخذ مالاً كان مع إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان، وغلبه على أخته فتزوجها بكرهه، وطلب عبد الرحمن فاستخفى[1] وأقام عبد الرحمن ببرقة مستخفياً خمس سنين ، وآل أمره في سفره إلى أن استجار ببني رستم ملوك

(١) حدثت في هذه الفترة حادثة لعبد الرحمن أوردها المقري في نفح الطيب ١ / ٣٣٣ كالتالي : « حكى غير واحد أنه لما هرب عبد الرحمن من الشام إلى أفريقية قاصداً الأندلس، نزل بمغيلة ، مضاربها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس ، ويكنى أبا قرة ، فاستتر عنده وقتاً . ولحق به بدر مولى أبيه بجوهر وذهب أنفذته أخته إليه ، فلما دخل الأندلس واستتب أمره به ، سار إليه أبو قرة وانسوس البربري ، فأحسن إليه ، وحظي عنده ، وأكرم زوجته «تكفات» البربرية التي خبأته تحت ثيابها عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه، فقال لها عبد الرحمن مداعباً حين استظلت بظله في الأندلس لقد عذبتني بريح إبطيك يا تكفات على ما كان بي من الخوف ، وسمطتني بانتن من ريح الجيف. فكان جوابها له مسرعة : بل كان والله يا سيدي منك خرج ولم تشعر به من فرط فزعك فاستظرف جوابها، وأغضى عن مواجهتها بمثل ذلك ، وهذا من آفات المزاح » .

تيهرت من المغرب الأوسط (الجزائر حالياً) وتغلب في قبائل البربر إلى أن استقر على البحر عند قوم من زناتة. وأخذ في تجهيز بدر مولاه إلى العبور للأندلس لموالي بني أمية وشيعتهم بها ، وكانت الموالي المروانية المدونة بالأندلس في ذلك الأوان ما بين الأربعمائة والخمسمائة ، ولهم قيادة ، وكانت رياستهم إلى شخصين: أبي عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد وهما من موالي عثمان ، رضي الله تعالى عنه ، وكانا يتوليان لواء بني أمية ، يعتقبان حمله ورياسة جند الشام النازلين بكورة البيرة ، فعبر بدر مولى عبد الرحمن إلى أبي عثمان بكتاب عبد الرحمن ،يذكره فيه أيادي سلفه من بني أمية ، وسببه بهم ، ويعرفه مكانه من السلطان وسعيه لنيله ، إذ كان الأمر لجـده هشام فهو حقيق بوراثته ، ويسأله القيام بشأنه ، وملاقاة من يثق به من الموالي الأموية وغيرهم ، ويتلطف في إدخاله إلى الأندلس ليبلي عذراً في الظهور عليها ، ويعده بإعلاء الدرجة ولطف المنزلة ، ويأمره أن يستعين في ذلك بمن يأمنه ويرجو قيامه معه ، ويأخذ فيه مع اليمانية ذوي الحنق على المضرية لما بين الحيين من الترات ، فمشى أبو عثمان لما دعاه إليه ، وبانت له فيه طماعية ، وكان عند ورود بدر قد تجهز إلى ثغر سرقسطة لنصرة صاحبها الصميل بن حاتم وجه دولة يوسف بن عبد الرحمن صاحب الأندلس. فقال لصهره عبد الله بن خالد المذكور : — لو كنا ذاكرنا الصميل خبر بدر وما جاء به لنختبر ما عنده في موافقتنا ، وكانا على ثقة في أنه لا يُظهر على سرهما أحداً لمروءته وأنفته ، فقال له : إن نحن

زملنا لم نأمن من أن تدركه الغيرة على سلطان يوسف لما هو عليه من شرف القدر وجلالة المنزلة، فيتوقع سقوط رياسته فلا يساعدنا قال أبو عثمان: فنمسح إذاً على أمره، ونذكر له أنه قصد لإرادة الإيواء والأمان وطلب أخماس جده هشام لدينا ليتعيش بها، لا يريد غير ذلك، فاتفقا على هذا.

فلما ودعا الصميل خلوا به في ذلك، وقد ظهر لهما منه حقد على صاحبه يوسف في إبطائه عن إمداده لمـــا حاربه الحباب الزهري بكورة (ناحية) سرقسطة. فقال لهما: أنا معكما فيما تحبان، فاكتبا إليه أن يعبر، فاذا حضر، سألنا يوسف أن ينزله في جواره وأن يحسن له، ويزوجه بابنته، فان فعل وإلا ضربنا صلعته بأسيافنا، وصرفنـا الأمر عنه إليه، فشكراه وقبلا يده ثم ودعاه.

وأقام بطليطلة وقد ولاه يوسف عليهـا وعزله عن الثغر، وانصرفا إلى وطنهما بإلبيرة، وقــد كانا لقيا من كان معهما في العسكر من وجوه الناس وثقاتهم، فطارحاهم أمر – عبدالرحمن ابن معاوية – ثم دسا في الكور (النواحي) إلى ثقاتهما بمثل ذلك، فدب أمره فيهم دبيب النار في الجمر.

وكانت سنة خلف بالأندلس بعد خروج من المجاعة التي دامت بالناس. لكن الصميل لم يلبث أن تراجع عن موقفه بعد أن فكر بالأمر ملياً، فطلب إلى أبي عثمان وصهره عبد الله بن خالد العودة إليه، وقال لهما: إني رويت في الامر الذي أدرته

معكما، فوجدت الفتى الذي دعوتماني إليه من قوم لو بال أحدهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله، وهذا - يقصد يوسف والي الاندلس - رجل نتحكم عليه، ونميل على جوانبه، ولا يسعنا بدل منه، ووالله لو بلغتما بيوتكما ثم بدا لي فيما فارقتكما عليه لرأيت أن لا أقصر حتى ألقاكما لئلا أغركما من نفسي، فاني أعلمكما أن أول سيف يسل عليه سيفي، فبارك الله لكما في رأيكما.

فقالا له: ما لنا رأي إلا رأيك، ولا مذهب لنا عنك. ثم انصرفا عنه على أن يعينهما في أمره إن طلب غير السلطان، وانفصلا عنه إلى «البيرة» عازمين على التصميم في أمره، ويئسا من مضر وربيعة، ورجعا إلى اليمانية، وأخذا في تهييج أحقاد اليمن على مضر، فوجداهم قوماً قد وغرت صدورهم عليهم، يتمنون شيئاً يجدون به السبيل إلى إدراك ثأرهم، واغتنما بُعد يوسف صاحب الأندلس في الثغر، وغيبة الصميل، فابتاعا مركباً، ووجها فيه أحد عشر رجلاً منهم مع بدر الرسول وفيهم تمام بن علقمة وغيره.

كان عبد الرحمن قد وجه خاتمه إلى مواليه. فكتب تحت ختمه إلى من يرجونه في طلب الأمر، فبثوا من ذلك في الجهات ما دب به أمرهم، ولما وجه أبو عثمان المركب المذكور مع شيعته ألفوه بشط فميلة من بلاد البربر، وهو يصلي، وكان قد اشتد قلقه وانتظاره لبدر رسوله، فبشره بدر بتمكن الأمر، وخرج إليه تمام مكثراً لتبشيره، فقال له عبد الرحمن: ما اسمك؟

قال : تمام ، قال وما كنيتك ؟ قال : أبو غالب . فقال : الله أكبر ! الآن تم أمرنا وغلبنا بحول الله تعالى وقوته ،وأدنى منزلة أبي غالب لما ملك ، ولم يزل حاجبه حتى مات عبد الرحمن .

وبادر عبد الرحمن بالدخول إلى المركب ، فلما همّ بذلك أقبل البربر فتعرضوا دونه ، ففرق فيهم من مال كان مع تمام صلات على أقدارهم ، حتى لم يبق أحد حتى أرضاه ، فلما صار عبد الرحمن بداخل المركب ،أقبل عاتٍ منهم لم يكن أخذ شيئاً فتعلق بحبل الهودج يعقل المركب ، فحول رجل اسمه شاكر يده بالسيف ، فقطع يد البربري ، وأعانتهم الريح على التوجه بمركبهم حتى حلوا بساحل إلبيرة في جهة المنكب وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨ هـ .

فأقبل إليه نقيباه أبو عثمان وصهره أبو خالد فنقلاه إلى قرية « طرش »[١] منزل أبي عثمان ، فجاءه يوسف بن بخت ، وانثالت عليه الأموية ، وجاءه جدار بن عمرو المذحجي (ويقال جديران أو حدران) من أهل « مالقة » [٢] فكان بعد ذلك قاضيه في

---

(١) طرش Torrox على الساحل الشرقي ،وهي تعد اليوم في مديرية مالقة.

(٢) مالقة (Malaga) إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه كالتين والعنب والرمان واللوز قال فيها أبو الحجاج يوسف ابن الشيخ البلوي المالقي :

مالقة حييت يا تينها ... الفلك من أجلك يأتينها
نهى طبيبي عنه في علتي ... ما لطبيبي عن حياتي نهى

نفح الطيب ١ / ١٥١ والمسالك والممالك ٣٥ ومعجم البلدان ٧ /٣٦٧ .

العساكر، وجاءه أبو عبده حسان بن مالك الكلبي من «إشبيلية» فاستوزره، وانثال الناس عليه انثيالاً، فقوي أمره مع الساعات فضلاً عن الأيام، وأمده الله بقوة عالية [١].

وكان خبر دخوله الأندلس قـــد صادف صاحبها يوسف الفهري بالثغر، وقد قبض على الحباب الزهري الثائر بسرقسطة وعلى عامر العبدري الثائر معه، فبينما هو بوادي الرمل بقربة من طليطلة وقد ضرب عُنق عامر العبدري وابن عامر برأي الصميل، إذ جاءه قبل أن يدخل رواقه رسول يركض من عند ولده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن ونزوله بساحل جند دمشق، واجتماع الموالي المروانيـــة إليه، وتشوف الناس لأمره، فانتشر الخبر في العسكر لوقته، وشمت الناس بيوسف لقتله القرشيين عامر وابنه، وخَتره (غدره) بعهدهما، فسارع عدد كثير إلى الدار لعبد الرحمن الداخل، وتنادوا بشعارهم، وقوضوا عن عسكره، واتفق أن جادت السماء بوابل لا عهد بمثله لما شاء الله تعالى من التضييق على يوسف، فأصبح وليس في عسكره سوى غلمـــانه وخاصته وقوم الصميل

---

(١) جاء في نفح الطيب ٣ / ٤٢ ما يلي: «لما خرج – عبد الرحمن – أول قدومه على الأندلس، أتوه بخمر فقال: إني محتاج لما يزيد في عقلي، لا لما ينقصه، فعرفوا بذلك قدره، ثم أهديت إليه جارية جميلة، فنظر إليها وقال: إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتي، ولا حاجة لي بها الآن، ردوها على صاحبها».

قيس وأتباعه ، فاقبل إلى طليطلة ، وقال للصميل : ما الرأي ؟ فقال : بادره الساعة قبل أن يغلظ أمره، فاني لست آمن عليك هؤلاء اليمانية لحنقهم علينا . فقال له يوسف : أتقول ذلك ؟ ومع من نسير إليه وأنت ترى الناس قد ذهبوا عنا ؟ وقد أنفضنا من المال،وأنضينا من الظهر،ونهكتنا المجاعة في سفرتنا هذه ، ولكن نسير إلى قرطبة ، فنستأنف الاستعداد له ، بعد أن ننظر في أمره ويتبين لنا خبره ، فلعله دون ما كتب إلينا . فقال الصميل : الرأي ما أشرت به عليك ، وليس غيره ، وسوف تتبين غلطك فيما تنكبه ، ومضوا إلى قرطبة .

وصل عبد الرحمن الداخل أخيراً إلى الأندلس، بعد سنوات ستة من الفرار ، وبعد معاناة طويلة من الخوف ، وبعد شقاء لا حدود له ، ولم تكن مشاق الطريق وصعوباتها وأهوالها أكثر من بداية قصيرة لملحمة طويلة ، فقد كان على عبد الرحمن الداخل القضاء على مراكز القوى المتنافسة ، وصحيح أن قوة كبيرة قد انضمت إليه ، ولكن هذه القوة لم تكن في كل الأحوال قوة متفوقة بدرجة ساحقة ، غير أن رصيد عبد الرحمن (وهيبة الشرعية الأموية) كانت دعماً لا يستهان به. وكان لا بد من وضع هذا الرصيد موضع الاختبار من أجل حسم الموقف . واكتساب القاعدة لبناء مستقبل الدولة .

٤ – يوم المصارة ـ النصر الحاسم

لم يعد عبد الرحمن في حاجة للانتظار ، فقد اشتدت شوكته وتكاثر أنصاره،فارتحل من المنكب إلى كورة (ناحية) «رية» فبايعه عاملها عيسى بن مساور ، ثم إلى شذونة فبايعه عتاب بن علقمة اللخمي ، ثم إلى مورور فبايعه ابن الصباح ، وبايعه جند مالقة ورندة وشريش ، وسار عبد الرحمن إلى اشبيلية ، وتلقاه رئيس عربها أبو الصباح بن يحيى اليحصبي ، واجتمع الرأي على أن يقصدوا به دار الإمارة قرطبة . فلما نزلوا « بطشانة »[١] ، قالوا: كيف نسير بأمير لا لواء له ولا عَلَم نهتدي إليه؟ فجاءوا بقناة وعمامة ليعقدوها عليه ، فكرهوا أن يميلوا القناة لتعقد تطيراً ، فأقاموها بين زيتونتين متجاورتين ، فصعد رجل فرع إحداهما ، فعقد اللواء والقناة قائمة[٢] .

---

(١) طشانه (Tocina) من إقليم أشبيلية .

(٢) مما يحكي في موضوع هذا اللواء : « أن فرقداً (العالم صاحب الحدثان) مر بذلك الموضع، فنظر إلى الزيتونتين، فقال: سيعقد بين هاتين الزيتونتين =

ونظر عبد الرحمن فيما حوله ، ووجد ريح النصر ، فها قد مضت سبعة أشهر منذ وصلت به المركب إلى الأندلس، وتذكر كيف استقبله القوم بالإعظام والإكرام، وعلى رأسهم عبيدالله بن عثمان ، (وكان وقت العصر، فصلى بهم العصر) وركبوا معه إلى قرية طرش ، وتذكر كيف أنه غادر البيرة ، وليس معه أكثر من ستمائة فارس من موالي بني أمية ووجوه العرب. وها هي الآن

= لواء لأمير لا يثور عليه لواء إلا كسره... وتبرك عبدالرحمن هو وولده بهذا اللواء ، فكان بعد أن بلي لا تحل منه العقدة التي عقدت أولاً ، بل تعقد فوقها الألوية الجدد ، وهي مستكنة تحتها، ولم يزل الأمر على ذلك حتى انتهت الدولة إلى عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، وقيل إلى ابنه محمد: فاجتمع الوزراء على تجديد اللواء ، فلما رأوا تحت اللواء أسمالا خلقة ملفوفة معقدة ، جهلوها فاسترذلوها ، وأمروا بحلها ونبذها ، وجددوا غيرها ، وكان جهور بن يوسف بن بخت شيخهم غائباً ، فحضر في اليوم الثاني وطولع بالقصة، فأنكرها أشد انكار وساءه ما فعلوه ، وقال : إن جهلتم شأن تلك الأخلاق فكان يجب أن تتوقفوا عن نبذها حتى تسألوا المشايخ وتتفكروا في أمرها ، وخبرهم خبرها، فتطلبوا تلك الأخلاق فلم توجد. ويقال كما قال « ابن حيان »: إنه لم يزل يعرف الوهن في ملك بني أمية بالأندلس من ذلك اليوم ، وقد كان الذي عقده أولاً عبد الله بن خالد من موالي بني أمية ، وكان والده خالد عقد لواء مروان بن الحكم جد عبدالرحمن الأعلى لما اجتمع عليه بنو أمية وبنو كلب بعد انقراض دولة بني حرب على قتال الضحاك بن قيس الفهري يوم مرج راهط فانتصر على الضحاك وقتله . ولما عرف الأمير بقصة اللواء حزن أشد حزن ، وانفتقت عليه إثر ذلك الفتوق العظام ، وكانوا يرون أنها جرت بسبب اللواء لأنه لم ينهزم قط جيش كان تحته .. وتولى حمل هذا اللواء لعبد الرحمن الداخل أبو سليمان داوود الأنصاري ، ولم يزل يحمله ولده من بعده إلى أيام محمد بن عبد الرحمن » – نفح الطيب ٣/٥٠ – ٥١ .

قوته قد وصلت إلى درجة كافية لمقارعة خصومه ومحاربة أعدائه فمضى نحو قرطبة ، وخرج يوسف الفهري بجيشه من قرطبة ، وكان نهر قرطبة (حائلاً أو فاصلاً) بين الجيشين .

وكانت المجاعة توالت قبل ذلك ست سنين ، فأورثت أهل الأندلس ضعفاً ، ولم يكن عيش عامة الناس بالعسكر ، ما عدا أهل الطاقة مذ خرجوا من أشبيلية إلا الفول الأخضر الذي يجدونه في طريقهم ، وكان الزمان زمان ربيع ، فسمي ذلك العام عام الخلف .

ولما رأى يوسف الفهري تصميم عبدالرحمن وعزمه على اقتحام قرطبة ، استشار وزيره الصميل بن حاتم فيما يفعله ، فأشار عليه الصميل بالتلطف له والمكر به لكونه صغير السن ، حديث عهد بنعمة. متراسلا «يوسف وعبدالرحمن» وخادع يوسف عبدالرحمن لمدة يومين آخرهما يوم عرفه من سنة ثمان وثلاثين ومائة ، وأظهر عبدالرحمن قبول الصلح ، فبات الناس على ذلك ليلة العيد، وكان قد أسرّ خلاف ما أظهر ، واستعد للحرب .

ومقابل ذلك ، ونظراً لما عرفه يوسف من ضعف جيش عبدالرحمن ـ فقد أصدر أمره بذبح الجزر، وتقدم بعمل الأطعمة في محاولة للتأثير على الروح المعنوية لجيش عبد الرحمن ، ولكن هذا لم ينخدع بتلك التظاهرات، فمضى وهو يعد للحرب عدتها، واستكمال أهبتها ، وسهر الليل كله على نظام أمره .

ووكل عبدالرحمن بخالدبن زيد (الكاتب ورسول يوسف) ومعه

جماعته ، وأمرهم إن كانت الدائرة عليهم أن يضربوا عنقه ، وإلا فلا. فكان خالد يقول: « ما كان شيء في ذلك الوقت أحب إليّ من غلبة عبدالرحمن الداخل عدو صاحبي » .

وركب عبد الرحمن جواداً ، فقالت اليمانية الذين أعانوه : «هذا فتى حديث السن تحته جواد، وما نأمن أول ردعة يردعها أن يطير منهزماً على جواده ويدعنا » . فأتى عبد الرحمن أحد مواليه فأخبره بمقالتهم ، فدعا أبا الصباح ، وكان له بغل أشهب يسميه «الكوكب» فقال له: **« إن فرسي هذا قلق تحتي لا يمكنني من الرمي، فقدم إليّ بغلك المحمود أركبه، فقدمه»** . فلما ركبه اطمأن أصحابه .

وطاف عبدالرحمن بعسكره في المصارة (غربي قرطبة) وقال لأصحابه : أي يوم هذا ؟ قالوا : الخميس – يوم عرفة ، فقال : فالأضحى غداً يوم الجمعة، والمتزاحفان أموي وفهري، والجندان قيس ويمن، قد تقابل الاشكال جداً ، وأرجو أنه أخو يوم مرج راهط ، فأبشروا وجدوا ، فذكرهم يوم مرج راهط الذي كانت فيه الوقعة بين جده مروان بن الحكم ، وبين الضحاك بن قيس الفهري ، وكانت يوم جمعة ويوم أضحى ، فدارت الدائرة لمروان على الضحاك ، فقتل الضحاك وقتل معه سبعون ألفاً من قبائل قيس وأحلافهم ، وقيل إنه لم يحضر مرج راهط من قيس مع مروان غير ثلاثة نفر : عبد الرحمن بن مسعدة الفزاري وابن هبيرة المحاربي وصالح الغنوي ، وكذا لم يحضر مع عبد الرحمن

الداخل يوم المصارة غربي قرطبة من قيس غير ثلاثة : جابر بن العلاء بن شهاب ، والحصين بن الدجن ، العقيليان ، وهلال بن الطفيل العبدي .

لما أصبح يوم الأضحى ، لم ينشب أن غشيت الخيل، ودارت رحى المعركة الحاسمة ، وأظهر الطرفان قدراً كبيراً من الصبر، ولما اشتد الكرب بين يدي عبد الرحمن ، ورأى شدة مقاساة أصحابه ، قال : « هذا اليوم هو أس ما يبنى عليه الملك ، إما ذل الدهر ، وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون » .

وصبر أصحابه الساعة بعد الساعة حتى تمّ لهم الظفر، وانهزم يوسف ، وصبر الصميل بن حاتم بعده معذراً وعشيرته يحفونه ، فلما خاف انهزامهم عنه ، تحول على بغله الأشهب معارضة لعبدالرحمن الداخل ، فمر به أبو عطاء فقال له : « يا أبا جوشن ! احتسب نفسك، فإن للأشباه أشباهاً ؛ أموي بأموي ، وفهري بفهري ، وكلبي بكلبي ، ويوم أضحى بيوم أضحى، ويمني بقيسي، والله إني لأحسب هذا اليوم بمثل مرج راهط سواء. فقال له الصميل: كبرت وكبر علمك ، الآن تنجلي الفماء وسحرك (رئتك) منتفخ ، فانثنى أبو عطاء لوجهه منقلباً ، وانهزم الصميل . وانتهت المعركة بانتصار عبد الرحمن .

وهنا تفجر الحقد في صدور اليمانية الذين أرادوا إبادة خصومهم «القيسية»، لكن عبد الرحمن نهاهم عن ذلك . ولما أنحى أصحابه

على أصحاب الفهري بالقتل يوم هزيمتهم على قرطبة . قال : « **لا تستأصلوا شافة أعداء ترجون صداقتهم ، واستبقوهم لأشد عداوة منهم**». يشير إلى استبقائهم ليستعان بهم على أعداء الدين.

كان انتصار عبدالرحمن كبيراً، وجد فيه بعض التعويض عما عاناه طوال سنوات الشتاء،وكان من حقه أن يشعر بنشوة النصر، ولكن الشاب الذي لم يبلغ الثلاثين من عمره لم تبهره الفرحة، ولم تتملكه روعة الانتصار ، لقد عرف أن كل ما حققه ليس أكثر من بداية ، فقد نجح بإقامة الدولة ، ولكن بقي أمامه توطيد دعائم هذه الدولة والمحافظة عليها . وكان ذلك أصعب من إقامة الدولة ذاتها .

٥ ــ الطريق لبناء الدولة

ما كاد عبدالرحمن بن معاوية ينفض عنه غبار المعركة (معركة يوم المصارة أو معركة قرطبة) حتى وصله قول زعيم اليمانية ورئيسها «أبا الصباح» وهو يخاطب قومه بعد أن فرغوا لتوهم من القضاء على خصومهم الذين كان يقودهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري، فيقول لهم: «يا معشر يمن! هل لكم إلى فتحين في يوم؟ قد فرغنا من يوسف وصميل، فلنقتل هذ الفتى المقدامة بن معاوية فيصير الأمر لنا، نقدم عليه رجلاً منا. ونحل عنه هذه المضرية» ولكن أحداً لم يجبه لذلك، ولم يكن عبد الرحمن بن معاوية ليتجاهل ذلك، إلا أنه أسرها في نفسه، وأرجأ قصاصه على مقولته ريثما تحين الفرصة المناسبة، وحانت هذه الفرصة بعد سنوات، فعمل على اغتياله سنة ١٤٩ هـ.

لم يكن عبدالرحمن بن معاوية في عجلة من أمره، لقد انتظر، وطال انتظاره إلى أن وصل قرطبة، وها هو يقف أمام أبوابها منتصراً، فلا ضير عليه إن هو انتظر ثلاثة أيام أخرى إلى أن

يخرج من دار الإمارة فيها عيال يوسف الفهري ، وإلى أن يصبح القصر معداً لاستقباله ، وأظهر بذلك عفته ، وأحسن السيرة ، غير أنه لما استقر بدار الإمارة ، لم يستقر به قرار من إفلات يوسف والصميل ، فخرج في أثر عدوه ، واستخلف على قرطبة القائم بأمره أبا عثمان ، واستكتب كاتب يوسف «أمية بن زياد» واستنام إليه إذ كان من موالي بني أمية ، ونهض في طلب يوسف فوقع يوسف على خبره فخالفه إلى قرطبة ودخل القصر ، وتحصن أبو عثمان خليفة عبدالرحمن بصومعة الجامع ، فاستنزله بالأمان ، ولم يزل عنده إلى أن عقد الصلح بينه وبين عبدالرحمن بن معاوية ، وكان عقد الصلح المشتمل عليه وعلى وزيره الصميل في صفر سنة ١٣٩ هـ [1] .

---

(١) يوسف الفهري هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري « باني القيروان » وأمير معاوية على أفريقية والمغرب . وأما الصميل فهو ابن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن. وقيل: الصميل بن حاتم بن عمرو ابن جندع بن شمر بن ذي الجوشن ، كان جده شمر من أشراف الكوفة ، وهو أحد قتلة الحسين رضي الله عنه ، ودخل الصميل الأندلس حين دخل كلثوم ابن عياض المغرب غازياً وساد بها ، وكان شاعراً كثير السكر أمياً لا يكتب ، ومع ذلك فانتهت إليه في زمانه رياسة العرب بالأندلس ، وكان أميرها يوسف الفهري كالمغلوب (على أمره) معه ، وكانت ولاية الفهري الأندلس سنة تسع وعشرين ومائة ، فدانت له تسع سنين وتسعة أشهر ، وعنه كما مر انتقل سلطانها إلى بني أمية . وقد أظهر الصميل الخضوع لعبد الرحمن الداخل ، لكنه لم يلبث أن قتل بيد عبدالرحمن عندما قام يوسف بن عبد الرحمن الفهري بثورته نفح الطيب ٣٢٨/١ - ٣٢٩ و٥٣/٣ .

وشارطه على أن يخلي بينه وبين أمواله حيث كانت ، وأن يسكن بلاط الحر (منزله بشرقي قرطبة) على أن يختلف كل يوم إلى عبدالرحمن بن معاوية ويريه وجهه ، وأعطاه رهينة على ذلك ابنه أبا الأسود محمد بن يوسف الفهري زيادة على ابنه عبد الرحمن الذي أسره ابن معاوية يوم الوقعة .

ورجع المسكران وقد اختلطا إلى قرطبة . وعرف عبدالرحمن منذ البداية أن صلحه مع يوسف الفهري ووزيره الصميل لن يكون صلحاً ثابتاً أو مستمراً بعد أن انتزعت منهما السلطة بالقوة فاتخذ منهما موقف الحذر ، ولم يكن حرصه على مقابلة يوسف الفهري في كل يوم ، واحتجاز ولديه رهينة عنده ، إلا واحداً من ترتيبات الحيطة ، لا سيما وأنه بلغه ما كان يردده في مجالسه الخاصة من الأسف لمجده الضائع [1] .

أصبح باستطاعة فلال بني أمية أن يجدوا لهم ملاذاً في الأندلس وفي سنة ١٤٠ هـ — ٧٥٧ م ، وصل إلى الأندلس عبد الملك بن عمر المرواني ، ومعه عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة ، فأكرمه عبد الرحمن ونوه به ، وولاه أشبيلية لأنه كان قعدد بني أمية ، كما عين ابنه « عمر بن عبد الملك » والياً على « موررور » .

---

(١) جاء في نفح الطيب ٣/٢٥ أن يوسف الفهري كان يتمثل قول حرقة بنت النعمان بن المنذر وفيه البيت التالي :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيها سوقة نتنصف

ولاحظ عبد الملك أن الأمير عبد الرحمن لا زال يخطب في المساجد للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، فأشار عليه بقطع اسمه من الخطبة ، وذكره بسوء صنيع بني العباس ببني أمية ، ولكن عبدالرحمن تمهل في ذلك، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له ، وذلك أنه قال له حين امتنع عن ذلك : إن لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسى ،فقطع حينئذٍ عبدالرحمن الخطبة للمنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر .

تحرك يوسف الفهري فيالسنة التالية (١٤١ هـ — ٧٥٨ م) من أجل إشعال نار الفتنة ، فهرب من قرطبة ، وسعى بالفساد في الأرض ، وقد كانت الحال قد اضطربت به في قرطبة ، ودسّ له قوم قاموا عليه في أملاكه، زعموا أنه غصبهم إياها، فدفع معهم إلى أحكام الحكام ، فأعنتوه (ظلموه) وحُمل عنه في التألم بذلك كلام رفع إلى الأمير عبدالرحمن بن معاوية أصاب أعداء يوسف به السبيل إلى السعاية به والتخويف منه، فاشتد توحشه، فخرج إلى جهة ماردة، واجتمع إليه عشرون ألفاً من الشتات (أكثرهم من البربر) فغلظ أمره .

ولما فرّ يوسف الفهري ،أسرع عبدالرحمن فاستدعىالصميل وقال له : «أين توجه يوسف ؟» فأجابه الصميل : لا أعلم. فقال له الأمير عبدالرحمن : ما كان ليخرج حتى يعلمك، كما أن ولدك معه ، وأكد عليه في أن يحضره، فقال له الصميل : **لو أنه تحت قدمي هذه ما رفعتها لك عنه ، فاصنع ما شئت .**

فحينئذٍ أمر بـه للحبس وسجنَ معه ولدي يوسف ، أبا الأسود محمداً المعروف بعدُ بالأعمى وعبدالرحمن ،فتهيأ لهما الهرب من نقب ، فأمـا أبو الأسود فنجا سالماً ، واضطرب في الأرض يبغي الفساد إلى أن هلك حتف أنفه ، وأما عبد الرحمن فأثقله اللحم فانبهر فرد إلى الحبس . وأَنِفَ الصميل من الهرب ، فأقام بمكانه ينتظر ما سيقرره الأمير عبدالرحمن بشأنه .

ومضى الأمير عبد الرحمن فأسرع بحشد قواتـه وقادها إلى حصن المدور حيث التقى بابن عمه صاحب إشبيلية « عبد الملك ابن عمر بن مروان » ومعـه ابنه أمية ومعظم جيشه . والتقى هذا الجيش بقوات الثورة القادمة من غرب الأندلس نحو قرطبة يقودها يوسف الفهري ، ودفع عبد الملك مقدمة لملاقاة قوات الثورة بقيادة ابنه أمية في أكثر العساكر ، فخالطهم أمية ، فوجد فيهم قوة ، فخاف الفضيحة معهم ، فانحاز منهزماً إلى أبيه ، فلما جاءه سقط في يـده ، وقال له : ما حملك على أن استخففت بي ، وجرأت الناس عليَّ والعدو ؟ إن كنت قد فررت من الموت فقد جئت إليه ، فأمر بضرب عنقه . وجمع أهل بيته وخاصته ، وقـال لهم : طردنا من الشرق إلى أقصى هذا الصقع ، ونحسد على لقمة تبقي الرمق ، اكسروا جفون السيوف ، فالموت أولى أو الظفر ، ففعلوا وحملوا ، وتقدمهم ، فهزم اليمانية وأهل اشبيلية ، وقتل بين الفريقين ثلاثون ألفاً ، وجرح عبد الملك ، فأتاه الأمير عبدالرحمن ، وجرحه يجري

دماً ، وسيفه يقطر دماً ، وقد لصقت يده بقائم سيفه ، فقبل بين عينيه ، وجزاه خيراً ، وقال له : يا ابن عم ، قد أنكحت ابني وولي عهدي هشاماً ابنتك فلانة ، وأعطيتها كذا وكذا ، وأعطيتك كذا ، ولأولادك كذا وأقطعتك وإياهم كذا ووليتكم الوزارة [1] .

أما بالنسبة لقائد الثورة، يوسف الفهري، فإنه لما رأى شدة الحرب ، وما تكشفت عنه ، أبلى بلاء حسناً ، ثم ولى منهزماً ، وقد استمر القتل في أصحابه وهلك منهم خلق كثير ، ومضى نحو طليطلة، فلقيه في قرية من قراها عبدالله بن عمرو الأنصاري، فلما عرفه قال لمن معه هذا الفهري يفر، قد ضاقت عليه الأرض، وقتله الراحة له والراحة منه ، فقتله واحتز رأسه وقدم به إلى عبدالرحمن، فلما قرب وأوذن عبدالرحمن به، أمره أن يتوقف

---

(١) ويذكر أن عبد الملك كان شاعراً أيضاً ، ومن شعره لما نظر نخلة منفردة باشبيلية ، فتذكر وطنه بالشام ، وقال :

يا نخل أنت فريدة مثلي — في الأرض نائية عن الأهل
تبكي وهل تبكي مكمة — عجماء لم تجبل على جبلي
ولو أنها عقلت إذاً لبكت — ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها حرمت وأخرجني — بغضي بني العباس عن أهلي

ونسب ابن الأبار هذه الأبيات لعبد الرحمن الداخل (الحلة : ٣٧) ثم قال: وقد قيل إن الأبيات الأربعة الأول : تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ...) لعبد الملك بن بشر بن عبدالملك.وقيل في الأبيات الأخيرة (يا نخل أنت غريبة..) إنها لعبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم.. ثم عاد فذكر أن هناك ما يقوي نسبتها إلى عبد الرحمن (نفح الطيب ٣/٥٩ - ٦٠) .

به دون جسر قرطبة ، وأمر بقتل ولده عبدالرحمن المحبوس عنده ، وضم إلى رأسه رأسه ، ووضعا على قناتين مشهرين إلى باب القصر .

ولما قتل يوسف ، أرسل عبدالرحمن بن معاوية على الصميل من خنقه في السجن فأصبح ميتاً ، فدخل عليه مشيخة المضرية في السجن ، فوجدوه ميتاً وبين يديه كأس ونقل ، كأنه بغت على شرابه ،فقالوا: والله إنا لنعلم يا أبا جوشن أنك ما شربتها،ولكن سقيتها (ودفع إلى أهله فدفنوه) [1] .

أفاد الفونسو (أو الأذفنش كما يذكره المؤرخون العرب) من الصراعات بين قادة المسلمين، فتابع سياسته في قيادة الصراع ضد المسلمين،وقوي أمره في غاليسية (أو جيليقية) وأخرج المسلمين من ثغور البلاد،وملك مدينة «لك» وشلمنقة وسمورة وأيلة وشقوبية وقشتالة ، وقد مات الفونسو فجاء ابنه « فرويله » ليتابع هذه السياسة ذاتها .

وأصبح على عبدالرحمن مجابهة الخطر الخارجي،ولكن تفاقم الأحداث الداخلية وزيادة خطورتها على التهديد الخارجي اضطره إلى اعطاء الأفضلية لتصفية خصوم الداخل قبل الانصراف كلياً لمجابهة الأخطار الخارجية . ومن أجل ذلك ، توجه إلى ملك الفرنج شارل مارتل أو «قارله» بحسب ما تذكره المصادر العربية

---

(١) الكامل في التاريخ (ابن الأثير) طبعة دار الكتاب العربي ٣٦٤/٤ وقد ذكرها في أحداث سنة ١٤٠ هـ ونفح الطيب ٣٥/٣ - ٣٦ .

التي أوردت ما يلي : « خاطب عبد الرحمن قارله ملك الفرنج ، وكان من طغاة الفرنج ، بعد أن تمرس بـه مدة ، فأصابه صَلب المكسر تام الرجولية ، فمال معه إلى المداراة ، ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابه للسلم ، ولم تتم المصاهرة » [١]. ولكن الصراع لم يتوقف ضد الملوك الكارولنجيين الذين اشتهر منهم ببيان الحاسم [٢] وشارلمان [٣] اللذين ركزا جهدهما لانتزاع ناربون [٤] من المسلمين.

---

(١) نفح الطيب ١٠/٣٣٠ – وفي ابن الأثير ٤/٣٦٥ . وقد أثارت المصادر الغربية كثيراً قضية «المصاهرة» في حين لم تتعرض لها المصادر العربية إلا بصورة عارضة على نحو ما هو وارد في النص .

(٢) ببيان الحاسم : Pepin Le Bref ولد عام ٧١٤ م في جوبيل Jupille (من بلجيكا حالياً) وهو ابن شارل مارتل ، وفي عام ٧٤١ م عينه والده دوقاً على نستريا وبورغونيا والبروفانس مع أخيه شارلمان ، وقام بقيادة القتال ضد أكتانيا والآلامان وبافاريا والساكسون والعرب المسلمين، وتوجه البابا زكريا عام ٧٥١م ملكاً على الفرنج بعد أن جمع حوله الأوفياء (Troste) في سواسون وأرغم لومبارديا على اعطاء ايتين للبابا مقابل تتويج البابا له ، فاعتبر أول ملوك الاسرة الكارولنجية ، وتوفي عام ٧٦٨ تقريباً .

(٣) شارلمان : Charlemagne ، كان ملك نوستريه، ثم أصبح ملك الفرنج (٧٧١ - ٨١٤ م) وامبراطوراً للغرب (٨٠٠ – ٨١٤ م) خلف أباه ببيان وحكم مع أخيه كارلومان حتى موت هـذا الأخير عام ٧٧١ م . حارب الاكيتانيين واللومبارديين وقاد حملة ضد العرب في اسبانيا حيث هزمت مؤخرة جيشه في رونسفو Roncevaux وقتل قائدها رولان سنة ٧٧٨ م. قام بحروب كثيرة ، وتوجه البابا امبراطوراً عام ٨٠٠ م .

(٤) ناربون (أربونة Narbonne) – سبق الحديث عنها – وقد حاول شارل مارتل فتحها عام ٧٣٢م لكنه عجز عن ذلك،وجاء ابنه ببيان الحاسم لفتحها ، ولكن قوات المسلمين أحبطت محاولته . وجاء شارلمان فأفاد من =

. . . .

= الاضطراب الذي رافق صعود الأمير عبدالرحمن لحكم الأندلس، فهاجمها سنة ٧٥٩ م ، بعد أن حاصرها مدة سبع سنين. وقد أدى هذا الحصار إلى ثورة الأهالي الذين ملوا الحصار ، فاندفعوا إلى ذبح الحامية الإسلامية ، ثم عاد المسلمون سنة ٧٩٢ م (في عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل) فحاصروا ناربون ، فبعث شارلمان بعثاً عدته عشرون ألف مقاتل ، عقد لواءه للفارس الشهير غليوم، وتلاقى الجمعان بقرب ناربون: فاستأصل المسلمون جيش الفرنج. ولم يبق من هؤلاء الاغليوم، وثلاثة عشر من رفاقه، وصلم أنف غليوم في المعركة، ولقب من ذلك اليوم بذي الأنف القصير Guillaume. Au Courtnez .

٦ ـ القضاء على مراكز القوى
(الفتن والثورات)

لم يكن التحريض الخارجي من الشمال (الكارولنجيين) هو مصدر قلق الأمير عبد الرحمن الداخل ، وإنما كان هناك تحريض خارجي أكثر قوة وأبعد تأثيراً وهو تحريض العباسيين لمراكز القوى المضادة للأمويين. وقد ظهر ذلك في ثورة **العلاء بن مغيث اليحصبي** بباجة « أو باغة » وكان قد وصل من أفريقية على أن يظهر الرايات السود بالأندلس في سنة ١٤٦ هـ (٧٦٣ م) وأخذ منذ وصوله الأندلس بالدعوة لأبي جعفر المنصور ، واجتمع إليه خلق كثير . فخرج إليه الأمير عبد الرحمن ، فالتقيا بنواحي اشبيلية ، ثم تحاربا أياماً ، فانهزم العلاء وأصحابه وقتل منهم في المعركة سبعة آلاف وقتل العلاء وجيء به وبأعلام أصحابه ، فقطع يديه ورجليه بعد أن ضرب عنقه وأعناق أصحابه ، وأمر – عبد الرحمن – فقرطت الصكاك في أذانهم بأسمائهم ، وأودعت جوالقاً محصناً ، ومعها اللواء الأسود ، وأنفذ بالجوالق تاجراً من

ثقاته ، وأمره أن يضعه بمكة أيام الموسم ، ففعل ، ووافق أبا جعفر المنصور قد حج ، فوضعه على باب سرداقه ، فلما كشفه ونظر إليه سقط في يده . وفي الوقت ذاته بعث بكثير منهم إلى القيروان ومكة ، فألقيت في أسواقها سراً، ومعها اللواء الأسود وكتاب المنصور للعلاء . وارتاع المنصور لذلك وقال : عرضنا هذا البائس – يعني العلاء – للحتف ، ما هذا إلا شيطان ، وما في هـذا الشيطان مطمع ، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر (١) .

وفي سنة ١٤٧ هـ (٧٦٤ م) وجه عبد الرحمن الداخل جيشاً بقيادة مولاه بدراً وتمام بن علقمة إلى طليطلة لإخضاع **تمرد هاشم ابن عذرة وضيقا عليه ثم أسراه هو وحياة بن الوليد اليحصبي وعثمان بن حمزة بن عبد الله بن عمر بن الخطاب** ، وأتيا بهم إلى عبد الرحمن في جباب صوف وقد حلقت رؤوسهم ولحاهم. وقد أركبوا الحمير وهم في السلاسل ، ثم صلبوا بقرطبة ، وفي هذه السنة ذاتها أرسل عبد الرحمن رسولا من قبله إلى الشام من أجل

---

(١) الكامل في التاريخ. ابن الأثير ٥ / ٢١ (أحداث سنة ست وأربعين ومائة) . ونفح الطيب ١ / ٣٣٢ و ٣ / ٣٦ . وباجه (Beja) في البرتغال حالياً . وكانت تضم كورة « ناصية » واسعة ، بها ولد المعتمد بن عبـــاد . اشتهرت بمناجم الفضة والدباغة وصناعة الكتان أيام المسلمين ، وباجه هذه من أقدم مدن الأندلس وأرضها أرض زرع وضرع ونوارها يحسن للنحل ويكثر عنه العسل : المغرب في حلى المغرب ١ / ٤٠٣ .

إحضار ولده الأكبر سليمان وعاد الرسول ومعه سليمان إلى الأندلس [1] .

وفي سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥ م) أعلن سعيد اليحصبي (المعروف بالمطري) تمرده بمدينة «نبلة» [2] وسبب ذلك أنه سكر يوماً فتذكر من قتل من أصحابه اليمانية مع العلاء ، فعقد لواء ، فلما صحا رآه معقوداً . فسأل عنه ، فأخبر به ، فأراد حله ثم قال : ما كنت أعقد لواء ثم أحله بغير شيء ، وأعلن تمرده ، فاجتمعت اليمانية إليه ، وقصد اشبيلية ، وتغلب عليها وكثر جمعه ، فبادره عبد الرحمن صاحب الأندلس في جموعه ، فامتنع المطري في قلعة « رعواق » لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، فحضر عبد الرحمن وضيق عليه ، ومنع أهل الخلاف « المتمردين » من الوصول إليه .

وكان قد وافقه على التمرد **غياث بن علقمة اللخمي** ، وكان **بمدينة شذونة** ، وقد انضاف إليه جماعة من رؤساء القبائل يريدون إمداد المطري وهم في جمع كثير ، فلما سمع عبد الرحمن ذلك سيّر إليهم بدراً مولاه في جيش فحال بينهم وبين الوصول

---

(١) ابن الأثير ٥ / ٢٥ .

(٢) نبلة (Neibla) قصبة (مركز ناحية) بالأندلس كبيرة ، شرق أكشونية وغرب قرطبة ، بينهما وبين قرطبة على طريق اشبيلية خمسة أيام (أربعة وأربعون فرسخاً)، وهي جامعة لكل وجه من الفوائد جمعت البر والبحر والزرع والضرع والنحل والنتاج وأجناس الثمار وكثرة الزيتون والأعناب .(المغرب في حلى المغرب ١ / ٢٣٩ ومعجم البلدان ٧ / ٣١٩).

إلى المطري ، فطال الحصار عليه، وقلّت رجاله بالقتل، ففارقه بعضهم ، فخرج يوماً من القلمة وقاتل فقتل ، وحمل رأسه إلى عبد الرحمن ، فقدم أهل القلمة خليفة بن مروان، فدام الحصار عليهم ، فأرسل أهلها يطلبون الأمان من عبد الرحمن ليسلموا إليه خليفة ،فأجابهم إلى ذلك وأمنهم ،فسلموا إليه الحصن وخليفة فخرب الحصن وقتل خليفة ومن معه، ثم انتقل إلى غياث الثائر في شذونة فحصر المتمردين وضيق عليهم فطلبوا الأمان فأمنهم إلا نفراً كان يعرف كراهتهم لدولته ، فإنه قبض عليهم وعاد إلى قرطبة ،فلما عاد إليها خرج عليه عبد الله بن خراشة الأسدي بكورة جيان ، فاجتمعت إليه جموع ، فأغار على قرطبة فسيّر إليه عبد الرحمن جيشاً فتفرق جمعه ، فطلب الأمان فبذله له عبد الرحمن ووفى له [1] .

---

(١) الكامل في التاريخ – ابن الأثير ٥ / ٢٦ – ٢٧ – وشذونة التي ورد ذكرها تقع في الجزيرة جنوب الأندلس « وهناك مدينة شذونة وناحية (كورة) شذونة » والمدينة من مدن الأندلس المليحة ظاهراً وباطناً ، في نهاية العمارة وكثرة الأرزاق،من متفرجاتها – الحلفة – وفيها نهر«لك»حيث خاض طارق معركته الحاسمة ضد رودريك – لذريق – وهو نهر مستحسن عليه بساتين ومناظر – متنزهات – أما كورة (ناحية) شذونة فهي من كور اشبيلية وأجلها محرثاً وشجرة ومياهاً وضياعاً وما شابه إلى جانب المحيط ، (المغرب في حلى المغرب ١ / ٣٠١ – ٣٠٢ ومعجم البلدان ٥ / ٢٤٤) .

وأما جيان : Jaen فهي مملكة جليلة بموسطة الأندلس ، معروفة بالمحارث والأخشاب، وهي بين غرناطة وطليطلة ومرسية، جمعت تناهي طيب الأرض وكثرة الثمر وغزر السقيا واطراد العيون وكثرة الحرير،(المغرب في حلى المغرب ٢ / ٤٩ – ٥١).

وفي السنة التالية (سنة ١٤٩ ﻫ = ٧٦٦ م) وجه عبد الرحمن ابن معاوية – الداخل – جيشاً بقيادة مولاه بدراً إلى بلاد العدو فجاوز إليه وأخذ جزيتها، وكان أبو الصباح يحيى بن يحيى «اليحصبي» كما سبق ذكره أميراً على اشبيلية. وقد اتخذ من المواقف وقال من الأقوال ما أوجب فتك عبد الرحمن به، ولما كان أبو الصباح رئيساً لليمانية، فإن عبد الرحمن لم يرغب في مجابهته، فعزله، ونهض أبو الصباح للثورة وأعلن تمرده، فأنفذ إليه عبد الرحمن وخدعه حتى حضر عنده فقتله. (أنظر ما قاله أبو الصباح في أول فقرة – الطريق لبناء الدولة).

ولما قتل عبد الرحمن خصمه «أبو الصباح» ثارت اليمانية باشبيلية تحت زعامة غياث بن المسير الأسدي طلباً للثأر، فطلب عبد الرحمن من ولاته في الأقاليم توجيه ما يتوافر لهم من القوات، وحشد حشداً كبيراً (في سنة ١٥٠ ﻫ = ٧٦٧ م.) وسار إلى غياث فواقعه، فانهزم غياث ومن معه، وقتل غياث وبُعث برأسه إلى عبد الرحمن بقرطبة.

وكان لثورة اليمانية وتمردهم دور كبير في التأثير على عبد الرحمن وذكرت بعض المصادر التاريخية في هذا الصدد ما يلي: «ولما أوقع عبد الرحمن باليمانية الذين خرجوا في طلب ثأر رئيسهم أبي الصباح يحيى بن يحيى اليحصبي، وأكثر القتل فيهم، استوحش من العرب قاطبة، وعلم أنهم على دغل وحقد، فانحرف عنهم إلى اتخاذ المماليك، فوضع يده في الابتياع، فابتاع موالي

الناس بكل ناحية ، واعتضد أيضاً بالبرابر ، ووجه عنهم إلى بر العدوة ، فأحسن لمن وفد عليه إحساناً رغب من خلفه في المتابعة واستكثر منهم ومن العبيد ، فاتخذ أربعين ألف رجل صار بهم غالباً على أهل الأندلس من العرب ، فاستفاقت مملكته وتوطدت »[1].

ويذكر في هذا المجال أيضاً ، أن غياث بن المسير الأسدي لم يكن وحده الذي ثار لمقتل زعيم اليمانية « أبو الصباح يحيى بن يحيى اليحصبي » ، وإنما ثار أيضاً **حيوة بن ملابس الحضرمي في اشبيلية وعبد الغفار بن حميد اليحصبي في لبلة** وعمرو بن طالوت رئيس باجة واجتمعوا وتوجهوا نحو قرطبة وهم يطلبون دم رئيس اليمانية أبي الصباح ، فقتلوا في هزيمة عظيمة وقيل : نجوا بالفرار فأمنهم الداخل[2].

كان من أصعب ما جابهه عبد الرحمن الداخل بعد ذلك ثورة **« شقنا بن عبد الواحد »** في الشرق من الأندلس ، وهو من بربر مكناسة ، كان يعلم الصبيان ، وكانت أمه تسمى فاطمة ، وادعى

---

(١) الكامل في التاريخ – ابن الأثير ٥ / ٢٨ – ٢٩ ونفح الطيب ٣ / ٣٦ – ٣٧ . وستأتي مناقشة هذه النقطة فيما بعد ، إذ أن لجوء عبد الرحمن لاصطناع الموالي لم يكن إلا بسبب نقص القدرة البشرية ، فقد قام البربر بعدد من الثورات وعلى الرغم من ذلك فقد أفسح لهم عبد الرحمن مكاناً في جيشه ، وكذلك الأمر بالنسبة لليمانية غير أن الجهد القتالي المستمر لقمع الثورات ومجابهة الأخطار الخارجية فرض زيادة الاعتماد على الجيش العامل – المنظم دائماً والمستعد أبداً للحرب – .

(٢) نفح الطيب ٣ / ٤٨ .

أنه من ولد فاطمة عليها السلام ثم من ولد الحسين عليه السلام، وتسمى باسم عبد الله بن محمد وسكن « شنت بريه »[1] واجتمع عليه خلق كثير من البربر، وعظم أمره وسار إليه الأمير عبد الرحمن الداخل، فلم يقف له وراغ في الجبال، فكان إذا أمن انبسط وإذا خاف صعد الجبال، بحيث يصعب طلبه، فاستعمل عبد الرحمن على طليطلة حبيب بن عبد الملك، فاستعمل حبيب على شنت بريه سليمان بن عثمان بن مروان بن أبان بن عثمان بن عفان وأمره بطلب شقنا (ومطاردته)، فنزل شقنا إلى شنت بريه وأخذ سليمان فقتله، واشتد أمره وطار ذكره وغلب على ناحية « قورية »[2] وأفسد في الأرض، وكان ذلك في سنة (١٥١ هـ = ٧٦٨ م).

وعاد عبد الرحمن فغزاه بنفسه في سنة (١٥٢ هـ = ٧٦٩م) فلم يثبت له، فأعياه أمره، فعاد عنه، وسير إليه سنة ثلاث وخمسين بدراً مولاه، فهرب « شقنا » وأخلى حصنه « شيطران ». ثم غزاه عبد الرحمن بنفسه سنة (١٥٤ هـ = ٧٧١ م) فلم يثبت له شقنا. ثم سيّر إليه سنة (١٥٥ هـ = ٧٧٢ م) أبا عثمان عبيدالله

---

(١) شنت بريه - وتكتبها المصادر العربية أيضاً « شلتمرية - وشنت مرية » . ويعرف بهذا الاسم مدينتان شنتمرية الغرب (Santa - Maria De Algarve) وتسمى اليوم Faro وهي بالبرتغال . والثانية شنتمرية الشرق، وهي السهلة : Albarracin والأولى هي المقصودة هنا . (نفح الطيب ١ / ١٣١) .

(٢) قورية Coria من مدن كورة - ناحية - ماردة وكانت تعرف قبل الفتح العربي الإسلامي باسم كوريوم Caurium وهي تقع إلى الشرق من قلمرية Coimbra من مدن البرتغال .

ابن عثمان فخدعه «شقنا» وأفسد عليه جنده، فهرب عبيدالله وغنم شقنا عسكره وقتل جماعة من بني أمية كانوا في العسكر ، وفي سنة ١٥٥ ﻫ أيضاً سار شقنا بعد أن غنم عسكر عبيد الله إلى حصن الهواريين المعروف بمدائن وبه عامل لعبد الرحمن ، فمكر به شقنا حتى خرج إليه فقتله شقنا وأخذ خيله وسلاحه وجميع ما كان معه .

وفي سنة (١٥٦ ﻫ = ٧٧٣ م) سار عبد الرحمن بنفسه إلى حرب شقنا وقصد حصن شيطران، فحصره وضيق عليه، فهرب إلى المفارة كعادته ، وكان قد استخلف على قرطبة ابنه سليمان ، فأتاه كتابه يخبره بخروج أهل اشبيلية . فرجع عبد الرحمن إلى قرطبة للقضاء على ثورة اشبيلية ، حتى إذا ما تم له ذلك عاد في سنة (١٥٨ ﻫ = ٧٧٥ م) فغزا مدينة « قورية » وقصد البربر الذين كانوا أسلموا عامله إلى شقنا فقتل منهم خلقاً من أعيانهم واتبع شقنا حتى جاوز القصر الأبيض والدرب ففاته .

وعاد شقنا ليبسط نفوذه على شنت بريه، فسير إليه عبدالرحمن سنة (١٥٩ ﻫ = ٧٧٦ م) جيشاً كبيراً ، ففارق شقنا مكانه ، وصعد الجبال كعادته ، فعاد الجيش عنه — كعادته أيضاً — .

وجاءت أخيراً سنة (١٦٠ ﻫ = ٧٧٧ م) وفيهـــا أرسل الأمير عبد الرحمن جيشاً بقيادة أبي عثمان عبيد الله بن عثمان وتمام بن علقمة لحصار شقنا ، فحاصره شهوراً بحصن شيطران وأعياهما أمره فقفلا عنه ، ثم ان شقنا بعد عودهما عنه خرج من

شيطران إلى قرية من قرى شنت بريه راكباً على بغلته التي تسمى الخلاصة، فاغتاله أبو معن وأبو خزيم وهما من أصحابه، فقتلاه ولحقا بعبد الرحمن ومعهما رأسه، فاستراح الناس من شره [1].

وهكذا استمرت ثورة « شقنا » لمدة عشر سنوات كان عبد الرحمن خلالها أحوج ما يكون للاستقرار الداخلي من أجل مجابهة الأخطار الخارجية، وقد استنزفت الحروب ضد شقنا جهداً كبيراً، كما أنها ملأت الفراغ الزمني الذي كانت تتطلبه عملية بناء الدولة .

والأمر المثير على كل حال التواقت في ظهور شقنا البربري وادعائه النبوة في الأندلس مع ظهور المقنع بخراسان الذي ادعى الألوهية . والغريب في الأمر هو التواقت أيضاً في القضاء عليهما. أولهما قضى عليه عبد الرحمن الأموي والآخر موسى الهادي العباسي .

وفي سنة (١٦٠ هـ = ٧٧٧ م) عبر عبد الرحمن بن حبيب الفهري « المعروف بالصقلبي » ، وإنما سمي بـه لطوله وزرقته وشقرته، من أفريقية إلى الأندلس محارباً لهم ليدخلوا في الطاعة للدولة العباسية ، وكان عبوره في ساحل (تدمير) [1] **وكاتب**

---

(١) الكامل في التاريخ (ابن الأثير) أحداث السنوات المذكورة .

(٢) تدمير : من نواحي « كور » الأندلس الشرقية، وتسمى أيضاً مصر لكثرة شبهها بها لأن لها أرضاً يسيح عليها نهر في وقت مخصوص من السنة ثم ينضب عنها فتزرع كما تزرع أرض مصر وصارت القصبة (مركز الناحية)=

سليمان بن يقظان بالدخول في أمره، ومحاربة عبدالرحمن الداخل والدعاء إلى طاعة المهدي (وكان سليمان ببرشلونة) فلم يجبه، فاغتاظ عليه وقصد بلده فيمن معه من البربر، فهزمه سليمان، فعاد الصقلبي إلى تدمير، وسار الأمير عبدالرحمن نحوه في العدد والعدة، وأحرق السفن تضييقاً على الصقلبي في الهرب، فقصد الصقلبي جبلاً منيعاً بناحية بلنسية، فبذل عبدالرحمن ألف دينار لمن أتاه برأسه، فاغتاله رجل من البربر، فقتله وحمل رأسه إلى عبدالرحمن فأعطاه ألف دينار، وكان قتله سنة ١٦٢ هـ = ٧٧٩م.

وفي هذه السنة ذاتها (١٦٢ هـ) أرسل عبدالرحمن قوة مقاتلة بقيادة شهيد بن عيسى لقتال دمية الفساني الذي كان عاصياً في بعض حصون (البيرة) [١] **فقتله**، وسير بدراً مولاه إلى ابراهيم ابن شجرة البرلسي، وكان قد عصي فقتله، وسير أيضاً تمامة بن علقمة إلى العباس البربري، وهو في جمع من البربر، وقد أظهر

= بعد تدمير مدينة « مرسية » وتسمى البستان لكثرة جناتها المحيطة بها، وفي كورة تدمير حجر المغناطيس الجاذب للحديد ومعادن الفضة كثيرة في كورة تدمير (نفح الطيب ١ / ١٦٤ و ٢٣٧).

(١) البيرة : Elvira بلدة قريبة من ساحل البحر في الأندلس، وكانت مملكة جليلة بين مملكتي قرطبة والمرية، ومملكتي جيان ومالقة، وهي كثيرة الكتان والأشجار والأنهار، كما كانت قاعدة المملكة في القديم، ولها ذكر شهير ومحل عظيم إلا أن رسمها قد طمس، ولم يبق منها إلا بعض أثر، وصارت غرناطة كرسياً. (المغرب في حلى المغرب، ٢/٩١ – ٩٣، ومعجم البلدان ٢/٣٣٠).

العصيان، فقتله أيضاً وفرّق جموعه، وفيها سير جيشاً مع حبيب ابن عبد الملك القرشي إلى القائد السلمي، وكان حسن المنزلة عند عبد الرحمن أمير الأندلس، فشرب ليلة وقصد باب القنطرة ليفتحه على سكر منه، فمنعه الحرس فعاد، فلما صحا خاف فهرب إلى طليطلة، فاجتمع إليه كثير ممن يريد الخلاف والشر، فعاجله عبد الرحمن بإنفاذ الجيوش إليه، فنازله في موضع قد تحصن فيه وحصره، ثم إن السلمي طلب البراز فبرز إليه مملوك أسود فاختلفا ضربتين فوقعا صريعين ثم ماتا جميعاً.

كان من أبرز الثورات المضادة للأمير عبد الرحمن في سنة (١٦٣ هـ = ٧٨٠ م) ثورة «سرقسطة»[١] بقيادة سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عثمان[٢]. فوجه الأمير عبد الرحمن إليهما جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد، فقاتلهما ثعلبة

---

(١) سرقسطة: مدينة بناها القيصر أغسطس فحملت اسمه (Ceasar Augusta) عام ٣٣ ق.م على أنقاض مدينة ايبيرية اسمها (سلدوبا Selduba) وقيل إن موسى بن نصير شرب من ماء نهر جلق بسرقسطة فاستعذبه وسأل عن اسمه، ونظر إلى ما عليه من البساتين فشبهها بغوطة جلق الشام، وتقع سرقسطة على نهر ابرة يشتق منه نهر جلق Gallego جارياً إلى الشمال، بينما يسير نهر شالون Jalon وهرفا Huerva إلى الجنوب، وكان استيلاء موسى بن نصير عليها سنة ٩٤ هـ = ٧١٢ م وأصبحت عاصمة للثغر الأعلى. (معجم البلدان ٥ / ٧١، والحلل السندسية ١ / ١١٩ و٢ / ١٩١ والمغرب في حلى المغرب ٢ / ٤٣٤).

(٢) جعلها المقري في نفح الطيب ٣/٤٨ من أحداث سنة ١٥٧ هـ، وابن الأثير ٥/٦٤ من أحداث ١٦٤ هـ.

قتالاً شديداً ، وفي بعض الأيام عاد إلى مخيمه فاغتنم سليمان غرته فخرج إليه وقبض عليه وأخذه وتفرّق عسكره .

وكان سليمان هذا على اتصال بملك الفرنج « شارلمان » فحاول على ما يظهر الكتابة للأمير عبد الرحمن من أجل مساومته وخداعه ، فأجابه عبد الرحمن على رسالته برسالة جاء فيها : « أما بعد ! فدعني من معاريض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدن يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لأزوين بنانها عن رصف المعصية ، نكالاً بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد » .

وفي السنة التالية (سنة ١٦٤ هـ = ٧٨١ م) استدعى سليمان ملك الفرنج «شارلمان» ليستعين به على عبد الرحمن ، ووعده بتسليمه سرقسطة ، وأن يسلمه أيضاً قائد عبد الرحمن «ثعلبة» وأسرع ملك الفرنج لاغتنام هذه الفرصة . ولكن الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد « بن عثمان بن عبادة الخزرجي » استصعب خيانة المسلمين والتعاون مع أعدائهم ، فأسرع إلى سرقسطة وقاد المقاومة فيها . ودارت معارك ضارية لم يتمكن خلالها شارلمان من فتح سرقسطة ، وقتل سليمان بن يقظان (الأعرابي الكلبي راس الفتن) .

ويظهر أنه حدث خلال تلك الفترة أن قام الساكسون بالزحف في شمال بلاد الغال (فرنسا) مما اضطر شارلمان إلى الانسحاب وحمل معه ثعلبة بن عبيد (قائد عبد الرحمن ، والذي كان

أسيراً في قبضة سليمان المقتول) .

أما عبد الرحمن الداخل ، فنظم قواته وسار إلى سرقسطة عندما بلغه تقدم شارلمان بعد أن وزع مجموعات قتالية بقيادة أولاده في الجهات المختلفة لتدمير كل قوات متمردة على أن يتم الاجتماع بعد ذلك في سرقسطة ، وسبقهم عبد الرحمن إليها ، فوجد أن الحسين بن يحيى قد فزع من قتل سليمان بن يقظان ، وانفرد بحكم سرقسطة متابعاً تمرده ، فما كان من عبد الرحمن إلا أن ضيّق عليه تضييقاً شديداً ، وأتاه أولاده من النواحي ومعهم كل من كان متمرداً ، وأخبروه عن طاعة غيرهم، فرغب الحسين في الصلح وأذعن للطاعة ، فأجابه عبد الرحمن وصالحه ، وأخذ ابنه سعيداً رهينة ورجع عنه ، وغزا بلاد الفرنج ، فدوّخها ، ونهب وسبى وبلغ « قلهرة » [١] وفتح مدينة فكيرة ، وهدم قلاع تلك الناحية ، وسار إلى «البشكنس» [٢] ونزل على حصن «مثمين» الأقرع فافتتحه ، ثم تقدم ملاوثون بن اطلال ، وحصر

---

(١) قلهرة : Calahoria غرب نطيلة على نهر ابرة (وفي البيان المغرب ٢/٢٦٧ وكان شانجه قد اتخذه معقلاً ومسكناً) .

(٢) البشكنس : Les. Basques قوم كانوا يسكنون في جبال البرتات « البيرنة » جنوب فرنسا وشمال الأندلس . وتزوج الحكم بن الناصر منهم بالسيدة صبح البشكنسية التي كان لها دور كبير في إدارة الدولة . ومن أشهر مقاطعاتها مقاطعة إلبة (Alava أو Alpa) . وقد عرف عن البشكنس عنادهم وشدة بأسهم ونزوعهم القوي إلى الحرية، وهذا ما كان يجعلهم عبر التاريخ (في القديم والحديث) في حالة ثورة دائمة .

قلعته، وقصد الناس جبلها وقاتلوهم فيها فملكوها عنوة وخربها ثم رجع إلى قرطبة ، ولم يكد يبلغها حتى علم بنشوب الفتنة بين بربر بلنسية وبربر شذت بريه، ووقوع معارك طاحنة بين الطرفين قتل فيها خلق كثير من الطائفتين .

وعمل عبد الرحمن بعد ذلك على الاتصال بملك الفرنج وطلب إليه إطلاق سراح قائـده « ثعلبة » ، فعمل شارلمان على إطلاق سراحه وإرساله إلى قرطبة . غير أن **الحسين بن يحيى لم يلبث أن غدر بوعده** ، ونكث بعهـده ، فأعلن التمرد من جديد بسرقسطة ، فما كان من الأمير عبد الرحمن إلا أن وجه **جيشاً** بقيادة « ثمامة بن علقمة » في سنة (١٦٥ هـ = ٧٨٣ م) **فاقتتلوا** قتالاً شديداً، واستطاع ثمامة أسر جماعة من أصحاب الحسين فيهم ابنه يحيى ، فسيرهم إلى الأمير عبدالرحمن ، فقتلهم ، وأقام ثمامة ابن علقمة على الحسين يحصره .

ثم إن الأمير عبد الرحمن سار سنة **(١٦٦ هـ = ٧٨٣ م)** إلى سرقسطة بنفسه فحصرها وضايقها ، ونصب عليها من المجانيق ستة وثلاثين منجنيقاً ، فملكها عنوة ، وقتل الحسين أقبح قتلة، ونفى أهل سرقسطة ليمين تقدمت منه ، ثم ردّهم إليها .

ويذكر أنه لما فتح الداخل سرقسطة، وحصل في يده ثائرها الحسين الأنصاري ، وشدخت رؤوس وجوهها بالعمد ، وانتهى نصره فيها إلى غاية أمله ، أقبل خواصه يهنؤونه ، فجرى بينهم أحد من لا يؤبه به من الجند ، فهنأه بصوت عالٍ ، فقال : والله

لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ عليّ فيه من النعمة من هو فوقي ، فاوجب عليّ ذلك أن أنعم فيه على من هو دوني ، لأصلينك ما تعرضت له من سوء النكال . من تكون حتى تقبل مهنئاً رافعاً صوتك غير متلجلج ولا متهيب لمكان الامارة ولا عارف بقيمتها حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك؟ وإن جهلك ليحملك على العود لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة، فقال: ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي، فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة، لا أعدمنيه الله تعالى، فتهلل وجه الأمير، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل ، ثم قال : نبهونا على أنفسكم ، إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها ، ورفع مرتبته ، وزاد في عطائه » [1] .

جاءت سنة (١٦٨ هـ = ٧٨٥ م) بعد ذلك فحملت معها ثورة أبو الأسود محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، وقد سبق الحديث أنه كان في سجن عبدالرحمن بقرطبة من حين هرب أبوه وقتل أخوه عبد الرحمن (سنة ١٤١ هـ = ٧٥٨ م) وحبس أبو الأسود وتعامى في الحبس، فصار يحاكي العميان ولا يطرف عينه لشيء ، وبقي دهراً طويلاً حتى صح عند الأمير عبد الرحمن الأموي ذلك ، وكان في أقصى السجن سرداب يفضي إلى النهر الأعظم يخرج منه المسجونون فيقضون حوائجهم من غسل وغيره. وكان الموكلون يهملون أبا الأسود لعماه ، فإذا رجع من النهر

(١) نفح الطيب ٣/٤١ - ٤٢ .

« الوادي الكبير » يقول : من يدل الأعمى على موضعه ، وكان مولى له يحادثه على شاطىء النهر ولا ينكر عليه ، فواعده أن يأتيه بخيل يحمله عليها ، فخرج يوماً ومولاه ينتظره ، فعبر النهر سباحة وركب الخيل ولحق بطليطلة ، فاجتمع له خلق كثير ، فرجع بهم إلى قتال عبد الرحمن الاموي ، فالتقيا على الوادي بقسطلونة(١) واشتد القتال ثم انهزم أبو الأسود وقتل من أصحابه أربعة آلاف سوى من تردى في النهر واتبعه عبدالرحمن الداخل يقتل من لحق حتى جاوز قلعة رباح (٢) .

ثم جمع وعاد إلى قتال عبدالرحمن في سنة (١٦٩ هـ = ٧٨٦م) فلما أحس بقدوم عبدالرحمن انهزم أصحابه وهو معهم ، فأخذ عياله وقتل أكثر رجاله ، وبقي إلى سنة ١٧٠ هـ ، فهلك بقرية من قرى طليطلة، وقام بعده أخوه قاسم وجمع جمعاً فغزاه الأمير عبد الرحمن ، فجاء إليه بغير أمان فقتله .

وتصادف (في سنة ١٦٨ هـ) أيضاً أن هلك شيلون — ملك جيليقية ، فولوا مكانه ألفونسو ، فوثب عليه « مورقاط » فقتله

---

(١) قسطلونة (هكذا جاءت في الكامل - ابن الأثير - أحداث سنة ١٦٨ هـ) وهي في نفح الطيب ١٦٥/١ قسطلة Calzalilla تبعد نحو عشرين ميلاً إلى الشمال من جيان ، والتي تقع بدورها على بعد ٩٧ كيلو متراً شمالي غرناطة ، فتكون على بعد ١٢٥ كيلومتراً تقريباً إلى الشمال من غرناطة .

(٢) قلعة رباح ، مدينة تابعة لطليطلة ، وموضعها يسمى اليوم Castillo De Caltarava La Vieja وكان لها دور كبير في أعمال التمرد بسبب موقعها المنيع - نفح الطيب ١٦٦/١ .

واجتاحت الاضطرابات مملكة جيليقية ، وأفاد عبد الرحمن الداخل من ذلك ، فوجه إليها نائبه « أمير طليطلة » فقتل وغنم وسبى ثم عاد سالماً .

وفي هذه السنة ذاتها (١٧٠ هـ = ٧٨٧ م) ثار البرابر (برابر نفزة) فوجه عبد الرحمن جيشاً لقتالهم فأذلهم وقتل فيهم . **وبذلك استطاع عبد الرحمن قمع كل الثورات وأعمال التمرّد حتى لم يبق في الأندلس من ينازعه ، وحتى أصبح باستطاعة أندلس الأمويين أن تنعم بالاستقرار .**

وقد يصاب الانسان بالذهول وهو يطالع قصة الصراع المرير الذي خاضه عبدالرحمن على امتداد اثنين وثلاثين عاماً ، ما تعب فيها ولا وهن ، ففي كل عام ثورة ، وفي كثير من الأحيان كانت هناك أكثر من ثورة في أكثر من ولاية أو اقليم. وقد يكون ذلك طبيعياً لأسباب ثلاثة ، فقد توافرت عوامل الثورة في الأندلس ذاتها بحكم تعدد مراكز القوى وتنافرها أولاً ، كما توافرت عوامل التحريض على الثورة من الجنوب حيث أنصار العباسيين ، ومن الشمال حيث الكارولنجيين « بيبان وشارلمان ».

والغريب في الأمر هو توافر الروح الثورية بمثل تلك القوة ، إذ ما يكاد يظهر زعيم للثورة في أي منطقة (وفقاً لما سبق عرضه) حتى تنثال جموع الثائرين (الحاقدين) من كل مكان . ويؤكد ذلك صعوبة الصراع المرير الذي خاضه الأمير عبد الرحمن الداخل حتى استطاع قمع الثورات ، وحتى أمكن له تكوين قناعات لدى مراكز القوى بعجزها عن مجابهته.

٧ ـ الحزم في بناء الدولة

لقد توافرت للأمير عبد الرحمن الداخل مجموعة من الصفات القيادية التي أبرزتها أعماله بحسب ما سبق ذكره وهي الصفات التي ورد بعضها في مقدمة الكتاب والتي يمكن إكمالها وفقاً لما أوردته المصادر التاريخية بما يلي :

« كان عبد الرحمن ثاقب الفهم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة متصل الحركة ، لا يخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة ، ولا يكل الأمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور ، شديد الحدة ، قليل الطمأنينة ، بليغاً مفوهاً شاعراً محسناً سمحاً سخياً طلق اللسان ، يخطب على المنبر ويعود المرضى ، ويكثر مباشرة الناس والمشي بينهم ، إلى أن حضر يوماً جنازة فتصدى له في منصرفه عنها رجل متظلم عامي وقاح ذو عارضة فقال : أصلح الله الأمير ، إن قاضيك ظلمني وأنا أستجيرك من الظلم ، فقال له : تنصف إن صدقت ، فمدّ الرجل يده إلى عنانه وقال : أيها الأمير أسألك بالله لما برحت

من مكانك حتى تأمر قاضيك بإنصافي فإنه معك ، فوجم الأمير والتفت إلى مَن حوله من حشمه ، فرآهم قليلا ، ودعا بالقاضي ، وأمر بإنصافه ، فلما عاد إلى قصره كلمه بعض رجاله ممن كان يكره خروجه وابتذاله فيما جرى ، ومما قيل له : إن هذا الخروج الكثير – أبقى الله تعالى الأمير – لا يجمل بالسلطان العزيز ، وإن عيون العامة تخلق تجلته ، ولا تؤمن بوادرهم عليه ، فليس الناس كما عُهدوا . فترك الأمير من يومئذ شهود الجنائز وحضور المحافل ، ووكل بذلك ولده هشاماً » .

عندما استقر ملك الأمير عبد الرحمن ، استحضر الوفود إلى قرطبة ، فانثالوا عليه ، ووالى القعود لهم في قصره عدة أيام في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم بكلام سرهم وطيب نفوسهم . مع أنه كساهم وأطعمهم ووصلهم ، فانصرفوا عنه محبورين مغتبطين ، يتدارسون كلامه ، ويتهافتون بشكره ، ويتهانون بنعمة الله تعالى عليهم فيه .

وفي بعض مجالسهم هذه مَثَلَ – أو حضر – بين يديه رجل من جند قنسرين ، يستجديه . فقال له : « يا ابن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فررت ، وبك عذت من زمن ظلوم ودهر غشوم ، قلل المال وكثرة العيال وشعث الحال ، فصير إلى نداكَ المال ، وأنت ولي الحمد والمجد والمرجو للرفد » .

فقال له عبد الرحمن مسرعاً : قد سمعنا مقالتك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء

مقامك ، فلا تعودن ولا سواك لمثله من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والالحاف في الطلبة ، وإذا ألمّ بك خطب أو حز بك أمر ، فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك، كيما نستر عليك خلتك ، وتكف شمات العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا عز وجهه باخلاص الدعاء وصدق النية »[1] وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يتعجبون منه من حسن منطقه ، وبراعة أدبه ،وكف فيما بعد ذوو الحاجات عن مقابلته بها شفاهاً في مجلسه .

ولما استقامت الدولة للأمير عبد الرحمن ، بلغه عن بعض من أعانه أنه قال : « لولا أنا ما توصل لهـذا الملك ، ولكان منه أبعد من العيوق» وأن آخر قال : «سعده أعانه لا عقله وتدبيره» فحركه ذلك إلى أن قال شعراً رد فيه على المقولتين ، وذكر لهم أن حزمه وعقله هما اللذان أوصلاه إلى ما يريد[2] .

---

(١) نفح الطيب ٣ / ٣٧ و ٣٩ و ٤٢ – ٤٣ .

(٢) كان مما قاله عبد الرحمن في شعره :

لا يلف ممتن علينـــا قائل	لولاي ما ملك الأنام الداخل
سعدي وحزمي والمهند والقنا	ومقادر بلغت وحال حـائل
إن الملوك مع الزمان كواكب	نجم يطالعنـــا ونجم آفل
والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا	أيروم تدبير البريـة غـافل
ويقول قوم سعـده لا عقله	خير السعادة ما حماها العاقل
أبني أمية قد جبرنا صدعكم	بالغرب رغماً والسعود قبائل
ما دام من نسلي إمام قائم	فالملك فيكم ثابت متواصل

وكان عبد الرحمن الداخل يرتاح لما استقر سلطانه بالأندلس ، إلى أن يفد عليه فَلُّ بيته بنو مروان حتى يشاهدوا ما أنعم الله تعالى عليه ، وتظهر يده عليهم ، ويحكى أن جماعة من القادمين عليه من قبل الشام ، حدثوه يوماً في بعض مجالسهم عنده ما كان من « الغمر بن يزيد بن عبد الملك » أيام محنتهم ، وكلامه لعبد الله ابن علي بن عبد الله بن عباس ، الساطي بهم ، وقد حضروا رواقه وفيه وجوه المسودة « العباسيين » من دعاة القوم وشيعتهم ، حيث عمل الغمر على مجابهة عبد الله وردَّ عليه فيما أراقه من دماء بني أمية ، وثلبهم والبراءة منهم ، وكيف أن « الغمر » لم تردعه هيبة خصمه عبد الله كما لم يضعف من عزمه قوة خصمه فوقف لمعـــارضته والرد عليه وتفضيله لأهل بيته - الأمويين - والدفاع عنهم .

وأنه جاء في ذلك بكلام غاظ عبد الله وأغصه بريقه ، مما عاجل الغمر بالحتف ، فمضى وخلف في الناس ما خلف من تلك المعارضة في ذلك المقام ، وكثر القوم في تعظيم ذلك ، إلا أن عبد الرحمن الداخل احتقر ذلك الذي كان من الغمر في جنب ما كان منه في الذهاب بنفسه عن الاذعان لعدوهم ، والأنف من طاعتهم ، والسعي في اقتطاع قطعة من مملكة الإسلام عنه ، وقام من مجلسه فصاغ بعضاً من الشعر أشاد فيه بما أنجزه ، وعبر فيه عن مشاعره تجاه ما قام به قريبه « الغمر الأموي » [1] .

---

(١) كان مما قاله الداخل،(نفح الطيب ٣/٣٨ والحلة السيراء ١/٣٩).=

وكان عبد الرحمن الداخل يقول : « أعظم ما أنعم الله تعالى به علي بعد تمكني من هذا الأمر ، القدرة على إيواء من يصل إلي من أقاربي والتوسع في الاحسان إليهم ، وكبري في أعينهم وأسماعهم ونفوسهم بما منحني الله تعالى من هذا السلطان الذي لا منة علي فيه لأحد غيره » .

ولكن ماذا كان موقف أهله منه ؟ هناك من اعترف للأمير عبد الرحمن الداخل بالفضل، وبذل قصارى جهده لدعمه وتأييده – مثل ابن عمه عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم الذي سبق ذكره في قتال اليمانية وقتله لابنه أمية لأنه تراجع في القتال – ومنهم من بادل الأمير عبد الرحمن وفاء بغدر مثل ابن أخيه المغيرة بن الوليد ، كما كان لعبد الرحمن الداخل مواقف مشهورة ممن ساندوه ودعموه في بداية الأمر ثم لم يلبث أن بطش بهم الواحد بعد الآخر وذلك كلما أنس من أحدهم غروراً أو مطاولة أو عرف فيهم غدراً أو نزوعاً لمنافسته على السلطة .

= شتان من قام ذا امتعاض ... منتضي الشفرتين نصلا
فجاب قفراً وشق بحراً ... مسامياً لجة ومحلا
دبر ملكاً وشاد عزاً ... ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى ... ومصر المصر حين أجلى
ثم دعا أهله إليه ... حين انتأوا أن هلم أهلا
فجاء هذا طريد جوع ... شديد روع يخاف قتلا
فنال أمناً ونال شبعاً ... ونال مالاً ونال أهلا
ألم يكن حق ذا على ذا ... أعظم من منعم ومولى

وقد يكون من المناسب استقراء بعض قصصهم بشيء من الإسهاب وفقاً لما ذكرته المصادر التاريخية :

آ – عبد الرحمن وابن أخيه المغيرة

وفد إلى الأندلس ، فيمن وفد إليها ، بعد أن استقر الأمير عبد الرحمن الداخل فيها من الأمويين الوليد بن معاوية ابن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان – أخو الأمير الداخل – ومعه ابنه المغيرة ، وكذلك ابن عمه عبد السلام بن يزيد بن هشام (المعروف باليزيدي) ، وكذلك أيضاً عبيد الله بن أبان بن معاوية ابن هشام – وهو ابن أخي الداخل. وما كاد هؤلاء يستقرون في الأندلس بعد أن أكرم الداخل وفادتهم ، حتى بدؤوا في التآمر ضده والسعي في طلب الأمر لأنفسهم ، وقد ظهرت مؤامرة المغيرة ابن الوليد بن معاوية سنة ١٦٦ هـ = ٧٨٢ م ، وعرف الأمير عبد الرحمن بالأمر ، فلم يلبث أن تربص به حتى قتله في السنة التالية (سنة ١٦٧ هـ = ٧٨٣ م) .

وقد ذكرت المصادر العربية عن أحد موالي عبد الرحمن الخاصين به أن هذا المولى دخل على عبد الرحمن إثر قتله ابن أخيه المغيرة المذكور وهو مطرق شديد الغم فرفع رأسه إلى مولاه وقال له : « ما عجبي إلا من هؤلاء القوم ، سعينا فيما يضجعهم في مهاد الأمن والنعمة ، وخاطرنا فيه بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا ، ويسر الله تعالى أسبابه ، أقبلوا علينا بالسيوف ،

ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به حتى أمنوا وردت عليهم أخلاف النعم هزوا أعطافهم ، وشمخوا بآنافهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحنا الله تعالى ، فخذلهم الله بكفرهم النعم إذ أطلعنا على عوراتهم ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا في البريء منهم ، وساء ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغيرنا عليه مـا نتوقع نحن منه ، وإن أشد ما علي في ذلك أخي والد هـــذا المخذول ، كيف تطيب لي نفس بمجاورته بعد قتل ولده وقطع رحمه ، أم كيف يجتمع بصري مع بصره ؟ اخرج له الساعة فاعتذر إليه ، وهذه خمسة آلاف دينار ادفعها إليه ، واعزم عليه في الخروج عني من هذه الجزيرة إلى حيث شاء من بر العدوة » .

وخرج مولى عبد الرحمن لتنفيذ مهمته التي وصفها بقوله : « لما وصلت إلى أخيه – يعني الوليد – وجدته أشبه بالأموات منه بالأحياء ، فآنسته وعرفتـه ، ودفعت له المال ، وأبلغته الكلام. فتأوه وقال : إن المشؤوم لا يكون بليغاً في الشؤم حتى يكون على نفسه وعلى سواه ، وهذا الولد العاق الذي سعى في حتفه قد سرى ما سعى فيه إلى رجل طلب العافية ، وقنع بكسر بيت في كنف من يحمل عنه معرة الزمان وكلّه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، لا مرد لما حكم به وقضاه » .

ثم ذكر أنه أخذ في الحركة إلى بر العدوة – المغرب حالياً – قال المولى : ورجعت إلى الأمير عبد الرحمن فأعلمته بقوله .

فقال : « إنه نطق بالحق ، ولكن لا يخدعني بهذا القول عما في نفسه ، والله لو قدر أن يشرب من دمي ما عف عنه لحظة ، فالحمد لله الذي أظهرنا عليهم بما نويناه فيهم ، وأذلهم بما نووه فينا » .

وأما بالنسبة لمؤامرة عبد السلام بن يزيد بن هشام المعروف باليزيدي وعبيد الله بن أبان بن معاوية بن هشام - ابن أخي الداخل أيضاً - فقد استطاع عبد الرحمن اكتشافها عن طريق مولى لعبيد الله بن أبان في سنة ١٦٣ هـ = ٧٧٩ م. وظهر للأمير عبد الرحمن أن أبو عثمان (عبيد الله بن عثمان) أول من ناصر عبد الرحمن ومهّد له الدخول إلى الجزيرة وحارب إلى جانبه حتى تم له النصر ، وعمل إلى جانبه حتى أصبح من كبار الدولة.

وتذكر المصادر التاريخية قصة العلاقة بين عبد الرحمن - وأبي عثمان هذا - كالتالي : « لما توطدت دولة الداخل استغنى عبد الرحمن عن أبي عثمان وعن أمثاله ، فأراد أبو عثمان أن يشغل خاطره وينظر في شيء يحتاج به إليه ، فجعل ابن أخته - أي ابن أخت أبي عثمان - يثور عليه في حصن من حصون البيرة ، فوجه عبد الرجمن من قبض عليه وضرب عنقه .

ثم أخذ أبو عثمان مع ابن أخي الداخل - عبيد الله بن أبان - وزين له القيام عليه ، فسعى لعبد الرحمن بابن أخيه قبل أن يتم أمره ، فضرب عنقه وأعناق الذين دبروا معه ، وقيل له : « إن أبا عثمان كان معه ، وهو الذي ضمن له تمام الأمر » فقال : « هو

أبو سلمة هذه الدولة» [١] ، فلا يتحدث الناس عنه بما تحدثوا عن بني العباس في شأن أبي سلمة، لكن سأعاتبه عتباً أشد من القتل، وجعل يوعده ، ثم رجع له إلى ما كان عليه في الظاهر » .

ويذكر هنا أن عبدالله بن خالد صهر أبي عثمان عبيدالله بن عثمان كان ثاني الرجلين اللذين قاما بالتمهيد لقيام حكم عبد الرحمن الداخل ونصرته وتأييده ، ولم يكن نصيبه بأفضل من نصيب أبي عثمان ، وذكر أن عبدالله بن خالد ، هذا كان قد ضمن لأبي الصباح « يحيى بن يحيى اليحصبي » رئيس اليمانية ، بالنيابة عن الداخل أشياء لم يف بها الداخل ، وقتل أبا الصباح ، فانعزل عبد الله وأقسم لا يشتغل بشغل سلطان حياته ، فمات منفرداً عن السلطان .

وكان الرجل الثالث في نصرة الأمير عبد الرحمن (على نحو ما سبق ذكره) هو تمام بن علقمة،وهو الذي عبر إليه البحر إلى المغرب ورافقه في رحلته إلى الأندلس وقاتل إلى جانبه . ولكن عبد الرحمن أقدم على قتل ولد تمام المذكور عندما أعلن تمرّده ، وكذلك فعل بولد أبي عثمان المتقدم الذكر ، فذاقا من ثكل ولديهما على يدي أعز الناس عليهما ما أراهما أن أحداً لا يقدر أن ينظر في تحسين عاقبته . ويصبح من الطبيعي بعد ذلك أن يتوجس الأمير عبد الرحمن من كل طامع حوله ، وأن يقمع

---

(١) يشير إلى أبي سلمة الخلال الذي كان يلقب وزير آل محمد، وقد تخلص منه العباسيون حين تمهدت الدولة – نفح الطيب ٤٤/٣ – ٤٧ .

بدون هوادة كل مدل عليه بالفضل . ولعل قصته مع مولاه بدر أفضل نموذج لسلوك الأمير عبد الرحمن تجاه خاصته .

ب – عبد الرحمن ومولاه بدر

صحب بدر الأمير عبدالرحمن طوال رحلته الشاقة، وسعى في تكميل دولة عبدالرحمن من ابتدائها إلى استقرارها، ثم صحبه عجب وامتنان كادا يردان به حياض المنية ، فأول ما بدأ به أن قال : بعنا أنفسنا وخاطرنا بها في شأن من هانت عليه لما بلغ أقصى أمله .

وقال وقد أمره بالخروج إلى غزاة : إنما تعبنا أولاً لنستريح آخراً، وما أرانا إلا في أشد مما كنا، وأطال أمثال هذه الأقوال، وأكثر الاستراحة في جانبه ، فهجره وأعرض عنه، فزاد كلامه، وكتب له رقعة منه جاء فيها : « أما كان جزائي في قطع البحر وجوب القفر ، والإقدام على تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى غير الهجر، الذي أهانني في عيون أكفائي، وأشمت بي أعدائي، وأضعف أمري ونهيي عند من يلوذني ، وبتر مطامع من كان يكرمني ويحفدني على الطمع والرجاء ، وأظن أعداءنا بني العباس لو حصلت بأيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون » .

فلما وقف الأمير عبد الرحمن على رقعته اشتد غيظه عليه ، فوقع عليها بالرسالة التالية . **« وقفت على رقعتك المنبئة عن**

جهلك وسوء خطابك ودناءة أربك ولئيم معتقدك ، والعجب انك متى أردت ان تبني لنفسك عندنا متاتاً أتيت بما يهدم كل متات مشيد مما تمن به، مما قد أضجر الاسماع تكراره، وقدحت في النفوس إعادته ، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك ، وزدنا في هجرك وابعادك ، وهضنا جناح ادلالك ، فلعل ذلك يقمع منك ويردعك حتى تبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى ، فنحن أولى بتأديبك من كل أحد ، إذ شرك مكتوب في مثالبنا وخيرك معدود في مناقبنا » .

فلما ورد هـذا الجواب على بدر سقط في يده وسلم للقضاء ، وعلم أنه لا ينفع فيه قول ، ووجه عبدالرحمن من استأصل ماله وألزمه داره ، وهتك حرمته وقصّ جناح جاهه، وصيره أهون من قميص على عمته،ومع هذا فلم ينته بدر عن الإكثار من مخاطبة مولاه ، تارة يستلينه وتارة يذكره ، وتارة ينفث مصدوراً بخط قلمه ما يلقيه عليه بلسانه ، غير مفكر فيما يؤول إليه ، إلى أن كتب له : « قد طال هجري ، وتضاعف همي وفكري ، وأشد ما عليّ كوني سليباً من مالي ، فعسى أن تأمر لي بإطلاق مالي ، وأتحد به في معزل ، لا أشتغل بسلطان ، ولا أدخل في شيء من أموره ما عشت » .

فأجابه الأمير عبدالرحمن : « إن لك من الذنوب المترادفة ما لو سلب معها روحك، لكان بعض ما استوجبته، ولا سبيل إلى رد مالك ، فإن تركك بمعزل في بلهينة الرفاهية وسعة ذات

اليد والتخلي من شغل السلطان أشبه بالنعمة منه بالنقمة، فايأس من ذلك، فإن اليأس مريح».

فسكت بدر لما وقف على هذه الإجابة مدة إلى أن أتى عيد فاشتد به حزنه لما رأى من حاجة من يلوذ به، وهمهم بما يفرح به الناس، فكتب إليه في ذلك رقعة منها: «وقد أتى هذا العيد الذي خالفت فيه أكثر من أساء إليك وسعى في خراب دولتك، ممن عفوت عنه، فتبنَّكَ النعمة في ذَراك، واقتعدَ ذِرْوَةَ العز، وأنا على ضد من هذا، سليباً من النعمة، مُطَّرَحاً في حضيض الهوان، أيأس مما يكون، وأقرع السن على ما كان».

فلما قرأ الأمير عبد الرحمن هذه الرقعة، أمر بنفيه عن قرطبة إلى أقصى الثغر، وكتب له على ظهر رقعته: «لتعلم أنك لم تزل بمقتك، حتى ثقلت على العين طلعتك، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر، فبالله إلا ما أقصرت، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق بك معي الدنيا، ورأيتك تشكو لفلان وتتألم من فلان، وما تقولوه عليك، وما لك عدو أكبر من لسانك، فما طاح بك غيره، فاقطعه قبل أن يقطعك»[1].

يظهر ذلك السبب الذي دفع الأمير عبد الرحمن لإدارة حكم

---

(١) نفح الطيب ٣/٤٠ – ٤١.

الأندلس بمركزية قوية، وعدم الاعتماد على عناصر ثابتة في خدمته حتى لا يستطيع هؤلاء تشكيل مراكز للقوى، يمكن لها إفساد ما كان يدبره الأمير عبد الرحمن في شؤون دولته، وهكذا، فبينما كان تمام بن علقمة هو أول حجاب الداخل (ذي العمر الطويل)، فقد استخدم عبد الرحمن بعد ذلك يوسف بن بخت الفارسي مولى عبد الملك بن مروان، ثم عبد الكريم بن مهران من ولد الحارث بن أبي شمر الغساني، ثم عبد الرحمن بن مغيث بن الحارث بن حويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني، وأبوه مغيث الرومي (فاتح قرطبة) ثم منصور الخصي، وكان أول خصي استحجبه بنو مروان بالأندلس، ولم يزل حاجبه إلى أن توفي الداخل.

ولم يكن للداخل من ينطلق عليه تسمية وزير، لكنه عين أشياخاً للمشاورة والموازرة، أولهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبدالله بن خالد، وأبو عبدة صاحب اشبيلية، وشهيد بن عيسى بن شهيد مولى معاوية بن مروان بن الحكم – وكان من سبي البربر وقيل إنه رومي، وبنو شهيد الفضلاء من نسله، وعبدالسلام ابن بسيل الرومي مولى عبد الله بن معاوية، وثعلبة بن عبيد بن النظام الجذامي صاحب سرقسطة لعبدالرحمن، وعاصم بن مسلم الثقفي من كبار شيعته، وأول من خاض النهر وهو عريان يوم الوقعة بقرطبة.

أما أول من كتب له عند خلوص الأمر إليه واحتلاله بقرطبة كبير نقبائه أبو عثمان وصاحبه عبد الله بن خالد المتقدما الذكر،

ثم لزم كتابته أمية بن يزيد مولى معاوية بن مروان ، وكان في عديد من يشاوره أيضاً ويفضل أمره وآراءه ، وكان يكتب قبله ليوسف الفهري، وقيل: إنه ممن اتهم في ممالأة اليزيدي في إفساد دولة عبد الرحمن ، فاتفق أن مات قبل قتل اليزيدي واطلاع عبد الرحمن على الأمر .

وألفى الداخل عندما استقر له الأمر ، أن يحيى بن يزيد اليحصبي كان على قضاء الجماعة ، فأقره حيناً ، ثم ولى بعده أبا عمرو معاوية بن صالح الحمصي ، ثم عمر ابن شراحيل ، ثم عبد الرحمن بن طريف ، وكان جدار بن عمرو يقضي في العساكر .

الأمر الواضح بعد ذلك هو أن بطش الأمير عبد الرحمن بخصومه كان مقنناً بأحكام، وكان أيضاً عطاؤه لحلفائه واصدقائه مقنناً ، فهو يعطي بقدر ما يريد ويمنع بقدر ما يريد ، وفي الحالين يلتزم بمبدأ الثواب والعقاب على قدر العمل، وهو يترك اكثر من فرصة لخصومه ممن يتوسم فيهم الخير ، ولكن ما أن يصل هؤلاء الخصوم إلى درجة المنافسة والمطاولة حتى ينازلهم بدون أدنى شفقة أو رحمة حتى يبيدهم ويستأصل شأفتهم .

ولقد غضب على مولاه بدراً ، وعاقبه، وكان عقابه متدرجاً في القسوة والشدة ، فمع كل زيادة كان يزيدها بدر ، كان الأمير عبدالرحمن يزيده من القصاص حتى وصل به الأمر إلى نبذه في أقصى جنوب الأندلس إلى أن مات . كما أن موقفه من اولئك الذين دعموه في البداية، ثم قلبوا له ظهر المجن بقي مرتبطاً بعامل

الوفاء لهم، فهو يرفض سلوك مسلك العباسيين مع أبي سلمة الخلال، ويرفض تلويث صفحته القيادية بدماء من كانوا أنصاراً له بالأمس، إلا أنه لا يتساهل بشأنهم ، فهو يقتل أبناءهم المتمردين عليه، ولا يأخذهم بجريرة أبنائهم ، ولكنه في الوقت ذاته يبعدهم عنه ، إذ إنه يعرف بأنه من المحال على هؤلاء نسيان ثاراتهم لأبنائهم، ولهذا فهو يستغني عن خدماتهم ويستكفي بمن هم أصدق ولاء منهم ، وأكثر تأييداً لحكمه .

والأمر الواضح أيضاً ، أن أولئك الذين دعموه وأيدوه كانوا يظنون أن بناء الدولة ينتهي عند إقامتها ، ولهذا فإنهم تعبوا مع عبد الرحمن الذي عرف أن بناء الدولة لا يبدأ إلا بتحقيق الاستقرار لها ، وكانت هذه النقطة هي نقطة الخلاف مع بدر الذي أراد الركون إلى الراحة والتنعم بمباهج الحكم ، فكان أن نبذه عبد الرحن وأبعده ، أما اولئك الذين دعموا عبد الرحمن وأيدوه ظناً منهم أنه باستطاعتهم التحكم بأمر هذا الشاب . فإن ظنونهم خابت، وعرف عبد الرحمن كيف يتعامل معهم وكيف يعاملهم ، فكان في ذلك نصره وهلاكهم .

٨ ـ الحرب والحضارة

توجه الأمير عبد الرحمن (صقر قريش) إلى الأندلس ومعه حصالة ضخمة من التجارب في مجالي الحرب وبناء الدولة . ولهذا فقد توجه بجهده لإقامة الدولة على الأسس الحضارية التي قامت بها دولة الأمويين في بلاد الشام . وقد اتخذ في ذلك من جده الأعلى « معاوية بن أبي سفيان » إماماً، وجعل من أعماله نبراساً يهتدي بهداه ويحتذي حذوه .

وكان قد مضى على الفتح عندما دخل عبد الرحمن الأندلس زهاء نصف قرن تقريباً ، وعلى الرغم من ذلك فقد صدمه عدم الانتظام في كيان الدولة ، وهو ما أبرزته المقولة التاريخية (التي وردت في المقدمة) وفيها : « ألفى الداخل الأندلس ثغراً قاصياً غفلاً من حلية الملك عاطلاً ، فأرهف أهلها بالطاعة السلطانية ، وحنكهم بالسيرة الملوكية، وأخذهم بالآداب، فأكسبهم عما قليل المروءة وأقامهم على الطريقة ... وبدأ فدوّن الدواوين ورفع الأواوين وفرض الأعطية وعقد الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع

العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آلته وأخذ للسلطان عدته فاعترف له بذلك أكابر الملوك ، وحذروا جانبه ، وتحاموا حوزته ، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقل له الأمر فيها » .

ويمكن على أساس هـذه (العموميات) الانطلاق إلى أعمال الأمير عبدالرحمن في الاتجاهات المختلفة وأبرزها : آ – السياسة الاستراتيجية للأمير عبدالرحمن الداخل. ب – التنظيم الدفاعي للبلاد . ج – الاعتماد على الجيش العامل وتنظيمه .

وفي مجال البناء الحضاري ، وعلاوة على ما سبق ذكره من التنظيمات الإدارية (والتعريب) فإنه قد يكون من المناسب التوقف عند ظاهرتين حضاريتين لازالتا قائمتين أمام أنظار الدنيا وهما – جامع قرطبة والرصافة .

آ – السياسة الاستراتيجية (الأحلاف)

لقد سبق الحديث عن موقف بلاد الغال «فرنسا» خلال مرحلة حكم الولاة المسلمين للأندلس ، والمهم في الأمر هو أن الإمارات في البروفانس وسبتمانيا[١] شعرت بضعف الحكم الإسلامي في الأندلس وتمزقه ، فأخذ الأمراء المحليون (كونتات) في نيم والمدن المجاورة وفي بيزيه وماغلون في تنظيم إدارة محلية مستقلة مع بقاء الاعتراف بسيادة المسلمين (ودفع الجزية لهم) .

---

(١) سبتمانيا - الاقليم الذي ضم المدن السبعة الآتية : ناربون ونيم وأوفت وبيزييه ولوديف وكاركاسون وماغاون :

Narbonne, Nime, Agde, Beziers, Loodéve, Carcassonne, et Maguelon.

وفي عام ١٣٠ ﻫ = ٧٤٧ م ، وجّه يوسف بن عبد الرحمن الفهري قوة إلى البيرينه بمهمة متابعة الفتح ، لكن قوات الفرنج جابهت المسلمين وقاومتهم بعناد ، ونظراً لصعوبة الاتصال بين العاصمة (قرطبة) وبين ناربون (أربونة) ، وبصورة خاصة في فصل الشتاء ، فقد اضطر المسلمون للتراجع ، وبدأت حركات التمرد ضد المسلمين ، لكن النزاع بين بيبان بن شارل مارتن وبين فيفر[١] ابن دوق أكيتانيا حول حكم سبتمانيا ، وضع حداً مرحلياً للانتقاض ضد المسلمين .

وفي عام ١٣٥ ﻫ = ٧٥٢ م ، سار بيبان بجيش كبير فاستولى على نيم واوقت وماغلون وبيزيه ، وسيطر على اللانغدوك[٢] ، ثم تابع تقدُّمه حتى وصل ناربون ، فتصدّت له الحامية الإسلامية وقاومته بضراوة ، فضرب حصاراً حولها ، وطال أمد الحصار حتى يئس بيبان من فتحها ، فترك قوة لمحاصرتها بقيادة قائد من أمراء القوط هو « أنسينوندس »[٣] ، لكن هذه القوة لم تنجح في إخضاع مقاومة حامية « ناربون » . وطال أمد الحصار لمدة سبع سنوات. وكانت الاتصالات الخفيّة مستمرة بين الملك بيبان وبين الأمراء المحليين المتعاونين مع الكارولنجيين ، وأمكن من خلال هذه الاتصالات عقد اتفاق للغدر بالمسلمين وإبادتهم ، لقاء

---

(١) فيفر : Vaifre .

(٢) اللانغدوك Languedoc وهي المقاطعة الواقعة إلى الشمال من روسيون Roussillon وقاعدتها تولوز ، وقد استولت عليها فرنسا سنة ١٢٧١ م .

(٣) أنسينوندس : Anseniundus .

ترك الحرية لناربون من أجل إقـامة حكم محلي تُدار فيه الأمور حسب عادات القوط وتقاليدهم .

وفي عام ١٤٢ هـ = ٧٥٩ م ، وبينما كانت الحامية الإسلامية في ناربون منصرفة لمتابعة الصراع ضد قوات الفرنج القـائمة على الحصار ،بوغتت بالسكان المحليين في ناربون وهم يقومون بالانقضاض عليهم ، وأُبيدت الحامية الإسلامية ، وسقطت ناربون بقبضة بيبان ، ولم يبقَ فيما وراء البيرينه سوى أعداد قليلة من المسلمين الذين انتشروا في مقاطعات دوفينيه ونيس أو (نيقية) ، وأعاد بيبان تنظيم الأقاليم ، فرمّم الحصون وشحنها بالمقاتلين ، وأقـام الحاميات على امتداد الرون وفي أكيتانيا وعلى امتداد الحدود .

ونتيجـة لهذه الانتصارات الموضعية ، وبعـــد أن تمّ للكارولنجيين توحيـد الفرنج تحت قيادة واحدة ، لم يعد هناك خطر يتهدد فرنسا ، وأصبح باستطاعة بيبان وابنه شارلمان من بعده الانطلاق من مواقع القوة ،والاستعانة عند الضرورة بجيوش من بلجيكا وألمانيا وإيطاليا لدعم الجيوش المحلية . وتحوّل بيبان من خنادق الدفاع إلى خنادق الهجوم ، وأخذ بإجراء الاتصالات السرية مع زعماء كاتالونيا وآراغوان ونافار ، ليوحدوا جهودهم ضد المسلمين وليشكلوا معه حلفاً دفاعياً . ولم يقف نشاط بيبان وابنه شارلمان من بعده عند هذا الحد ، بل أخذ في إثارة الفرقة بين أمراء المسلمين وتحريض بعضهم على بعض .

وكان بيبان الحاسم يعتبر سلسلة جبـــال البيرينه هي الحد

الطبيعي الفاصل بين مملكته وبين أندلس الأمويين . وعندما تم له الاستيلاء على ناربون وإجلاء المسلمين من جنوب فرنسا، انصرف لمعالجة هجمات الشمال ومتابعة فتوحاته في اتجاه الشرق، وتوافق ذلك مع دخول عبد الرحمن (صقر قريش) إلى الأندلس وإقامته للدولة الأموية والانصراف لتنظيمها، فشهدت الحدود فترة من الهدوء النسبي . وترافق ذلك أيضاً مع نزوح عناصر المقاومة المحلية من النصارى إلى الشمال وتمركزهم في جيليقية حيث الجبال الصعبة والمواقع المنيعة . وقد أفاد هؤلاء من الاضطرابات التي سبقت قيام العهد الأموي ورافقته، فاستولت على براغه وبورتو وفيزو، وسيطرت على الساحل الغربي (البرتغال) حتى مصب نهر دورو، وأصبح الإقليم بين الساحل والوادي الجوفي (دورو) خالياً من المسلمين [١] .

وهكذا وجد الأمير عبد الرحمن نفسه أمام موقف صعب، فقد كان عليه مجابهة خطر الفرنج (الكارولنجيين)، علاوة على كيانات نصارى الشمال (اشتورية ونافار وجيليقية)، مما جعل الأمير عبد الرحمن يفكر بأسلوب درء خطر هذا العدو المشترك الذي ظهر واضحاً خلال ثورة سليمان الكلبي أمير برشلونة .

---

(١) الأسماء باللغة الأجنبية كما يلي : براغه Braga وبورتو porto وفيزو Viseu ودورو أو الوادي الجوفي Duero . وجاء في نفح الطيب ١ / ٣٣٠ أن الجلالقة استولوا خلال هذه الفترة على لك Luco وبرتقال Porto وشلمنقه Salamanca وقشتالة Castillos وشقوبية Secovia ... وكلها في شمال غرب شبه جزيرة الأندلس، على المحيط الأطلسي .


أندلس الأمويين
غاسكونيا
كاركاسون
تارب
بو
ناربون
جبال البيرينه
بيربينان
أوقيدو
جليقية
شنت ياقب
لك
اشتوريش
البشكنس
بمبلونه
بقيرة
برغش
غرنون
ليون
بربشتر
ناقار
تطيلة
لارده
بيونه
قلهرة
قلعة النور
بلد الوليد
سمورة
سرقسطة
برشلونه
روطه
بورتو «برتقال»
شنت استيفن
مدينة الشونيه
طركونه
ركلية
طرطوشه
شلمنقة
انقيشه
قلمريه
الخنقه
ملديد
وادي الحجارة
جزر الباليئار
طليطلة
قوريه
مينورقه
شنترين
الأرك
ثالانسا
ماردة
ميورقه
الزلاقه
لشبونه
يابره
اوريط
يابسة
دانيه
شاطبة
العقاب
بطليوس
لقنت
قصر ابي دانس
جيان
مرسيه
شلب
اشبيلية
قرطبه
الجرف
غرناطة
جبل الثلج
قرطاجنه
المريه
مالاقا
المحيط الأطلسي
جبل طارق
بليش
البحر الأبيض المتوسط
طنجه
سبته

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كان أسلوب عبد الرحمن الداخل ومركزيته الشديدة وبطشه بكل من ينازعه السلطة، من الأسباب التي أقنعت ضعاف النفوس بالتعاون مع الكارولنجيين ، الذين ظهروا قوة كبرى على تخوم بلادهم .

وقد انتهج ببيان ومن بعده شارلمان اسلوب الاتصال بأمراء مقاطعات الشمال من المسلمين ، وأصبح اسلوب الكلبي نموذجاً يحتذيه كل متمرد في الشمال ، فإذا حاول أمير المسلمين بقرطبة ممارسة ضغط عليهم هربوا إلى الكارولنجيين أو استعانوا بهم ، وإذا لمسوا خطر الكارولنجيين عادوا إلى أمير قرطبة . وقد ساعدتهم طبيعة الإقليم الوعرة على هذا الاستقلال الذاتي ، وقام الكارولنجيون بدور كبير في تعزيز هذه النزعة ودعمها .

وكان الأمير عبد الرحمن في حاجة لفترة من الهدوء النسبي حتى يستطيع إكمال بنيانه الداخلي . ومقابل ذلك ، وجد ببيان (ملك الكارولنجيين) في انقسام الدولة الإسلامية فرصة مناسبة لضرب المسلمين بعضهم ببعض، فأرسل في عام ١٤٨ هـ = ٧٦٥ م وفداً إلى بغداد لعقد أواصر الصداقة ، ومكث هذا الوفد في بغداد ثلاث سنين ، ثم رجع إلى فرنسا وبرفقته وفد من المسلمين (رسل الخليفة المنصور) . وقد لقي الوفد رعاية كبيرة ، فتمَّ إنزاله في « متز »[١] باللورين ، ثم نُقل إلى قصر « سلس »[٢]

---

(١) متز Metz .

(٢) سلس Sels .

على ضفاف اللوار ، واستمرت إقامته في فرنسا ثلاثة أعوام .

وكانت الدولة العباسية تحاول باستمرار تحطيم الكيان الأموي بالأندلس ، كما كان عبد الرحمن الداخل يطمح لاستعادة حكم الأمويين في الشام ، وقد عمل لهذا الهدف بصورة جدّية عام ١٦٣ هـ . واستمر النزاع بين أمراء قرطبة وخلفاء بغداد ، ولهذا وبينما كان خلفاء المشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الكارولنجيين الذين كانوا في حروب مستمرة مع أمراء قرطبة ، كان أمراء قرطبة يعقدون معاهدات مماثلة مع ملوك القسطنطينية الذين كانوا بدورهم في حرب مستمرة مع أمراء بغداد . وهكذا انتهى الصراع إلى نشوء محورين متضادين: محور بغداد ـ الكارولنجيين مقابل محور قرطبة – البيزنطيين . كل ذلك والعلاقات التجارية مستمرة في التطور والازدهار ، بحيث كانت سفن المسلمين وأساطيلهم تنقل البضائع من الهند والصين إلى بغداد ففرنسا (مرسيليا وفريجوس) عبر موانىء سوريا ومصر .

والمهم في الأمر هو أن « استراتيجية الأحلاف » قد ساعدت عبد الرحمن على تحقيق نوع من الهدوء النسبي على حدود الشمال ، وأصبحت سياسة الأحلاف الاستراتيجية هي أساس العلاقات التي بقيت سائدة طوال العهد الأموي في الأندلس .

ب – تنظيم الصوائف والثغور

لقد عرف الأمير عبد الرحمن يقيناً ذلك التشابه بين الموقع

الجيواستراتيجي لبلاد الشام والموقع الجيواستراتيجي للاندلس . وإذا كانت جبـــال طوروس هي الحد الفاصل بين بلاد الشام والبيزنطيين في الشمال، فقد كانت جبال البيرينه هي الحد الفاصل بين الأندلس الإسلامية والدولة الكارولنجية في الشمال ، وهنـــا وهناك كانت الممرات الإجبارية هي محور التحرّك للعمليات والتي سمّاها العرب المسلمون « الدروب » .

ولقد طبّق العرب المسلمون طوال العهد الأموي استراتيجية ثابتة قائمة على تنظيم الحرب بصورة دائمة ، من خلال تنظيم الثغور وتوجيه الصوائف والشواتي . وذلك بهدف إرباك العدو وإشغاله بنفسه وعدم السماح له بالتعرّض لبـــلاد المسلمين (وهو ما يشبه اليوم تماماً عمليات الهجوم الإجهاضي المسبق) .

وقد حفظت المصادر الأندلسية شواهد كثيرة تؤكد ما أنجزه الأمير عبدالرحمن الداخل في هذا المجال، حيث نقل معه خلاصة التجارب القتالية للأمويين في تعاملهم مع الأعداء .

وهكذا ، ففي مجال تنظيم الثغور ، تمّ تقسيم مناطق الشمال إلى ثلاثة ثغور (مناطق عسكرية) ، أولها : الثغر الأعلى (أو الثغر الأقصى) ويشمل سرقسطة وناحيتها (كورتها) . وثانيتها: الثغر الأوسط ، ويشمل مدينـــة سالم [١] ويمتد حتى طليطلة .

---

(١) مدينة سالم Medinaceli : تضم الناحية (الكورة) المسماة بكورة سالم أيضاً ، وفيها قبر « المنصور بن أبي عامر » في مدينة سالم ، وهي من المدن الجليلة . ويقال : إن طارقاً وجد فيها المائدة المعروفة بمائدة سليمان .

وثالثتها : الثغر الأدنى ، ويشمل قويمرة والناحية (الكورة) المحيطة بها .

أما في مجال الصوائف : « فقد نظّم الأمير عبد الرحمن الصوائف – وهي جمع صائفة – نسبة إلى فصل الصيف ، وهي الحملات التي جرت عادة بني أمية وحلفائهم على توجيهها إلى دار الحرب خلال فصل الصيف . وقد استقر تقليد هذه الحملات حتى أصبحت وظيفة ثابتة يُعهد بها إلى أحد القواد الكبار أو إلى واحد من أفراد الأسرة المالكة ، وكثيراً ما كان الأمير أو الخليفة نفسه هو الذي يضطلع بقيادتها ، وكان الاستعداد لها يبدأ في شهر حزيران (يونيو) ، وكانت قيادة الجيش تتكتم دائماً أخبار الطريق الذي ستنتهجه حملة الصائفة حتى تكون ضرباتها مفاجئة للعدو . وقد وافتنا المراجع الأندلسية بكثير من التفاصيل حول هذه الحملات ، التي أصبحت على طوال أيام الدولة الأموية وفي ظل العامريين بعدهم تقليداً محترماً سنوياً .

ويُذكر للأمير عبد الرحمن أنه هو الذي عمل أيضاً على تنظيم البدل والتناوب بين حملات الصوائف ، نظراً لما قد تتعرض له من الخسائر ، وحتى يستطيع المحافظة باستمرار على قوة الهجوم وشدته . وقطع الأمير البعوث على الأجناد ، وجعلها بينهم دولاً في كل ستة أشهر ، فإذا انقضت دولة ندب أخرى »[1] .

---

(١) المقتبس ٢٦٧ ، وقد بقي لفظ الصائفة بعد أن انتقل إليها من العربية في صورة Aceifa . وانظر أيضاً أخبار مجموعة « مؤلف مجهول » ١٠٣ .

ج – الاعتماد على الجيش العامل وتنظيمه

كانت حياة الأمير عبد الرحمن الداخل في الأندلس، جهاداً مستمراً وصراعاً متصلاً. وقد يكون من الطبيعي والحالة هذه أن يكون أول عمل له هو الاعتماد على جيش دائم، ومن الطبيعي أيضاً بحسب ما سبق ذكره ألاّ يعتمد هـذا الجيش على عناصر معينة، فقـد كانت القبائل اليمانية هي أول من ناصرت الأمير عبد الرحمن وأيّدته وقاتلت تحت رايته، غير أن اليمانية ذاتهـا انتقضت عليه وأعلنت تمرّدها بعد ذلك، كما كان من المحال عليه الاعتماد على المضرية أو على البربر المسلمين وحـــدهم. ولهذا فقد بدأ بتكوين جيشه اعتماداً منه على المتطوعين من الصقالبـة والموالي والبربر.

ويرى المؤرخون العرب (ابن خلدون والمقري وابن بسام وابن الأثير) أن سبب اعتماد الأمير عبـد الرحمن على الصقالبة دون سواهم، هو كثرة الثورات وأعمال التمرّد بين العرب بعضهم مع بعض والبربر بعضهم مع بعض، علاوة على الحروب بين العرب والبربر، وهو ما تبرزه المقولة التالية: « كثرت ثورة رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمن الداخل ونافسوه ملكه، ولقي منهم خطوباً عظيمة وكانت العاقبة له، واستراب في آخر أمره بالعرب لكثرة مَن قام عليه منهم، فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالي »[1].

---

(١) نفح الطيب ١ / ٣٢٣.

غير أن التوقف عند هذه المقولة يخفي في الواقع جانباً من الحقيقة ، ذلك أن حاجة الدولة لجيش دائم ، ثم كثرة الأعباء القتالية ، فرضت الاعتماد على جيش عامل كبير في حجمه ، قوي في تنظيمه ، ولهذا تمّ العمل بالاعتماد على جميع العناصر المتوافرة أو التي يمكن إغراؤها للعمل في الجيش الدائم ، وذلك على نحو ما فعل مع البربر ، إذ حرص على الإحسان إليهم والتجاوز عن أخطائهم من أجل التطوُّع في الجيش . ولعل في مقولته يوم معركة المصارة ، عندما أوقف اليمانية عن الفتك بالمضرية بقوله : لا تستأصلوا شأفة أعداء ترجون صداقتهم ، واستبقوهم لأشد عداوة منهم». لعل هذا هو أفضل برهان على صحة تقويم الأمير عبد الرحمن لأهمية العامل البشري المتوافر ، وضرورة المحافظة عليه قدر المستطاع،من أجل مجابهة الأعداء المختلفين في مشاربهم والمتنوّعين في أهدافهم،والمتفاوتين فيدرجة عدائهم وخطورتهم.

المهم في الأمر هو أن عملية تنظيم الجيش الدائم قد تطلّبت تخصيص موازنات ضخمة ، ولهذا فرض الأمير عبد الرحمن ضريبة على العرب لقاء إعفائهم من الخدمة في الجيش العامل ، ثم خصّص ثلث موازنة دولته لبناء الجيش ، وبذلك أمكن له حشد قوات مقاتلة كبيرة ، وقد بلغت موازنة الدولة في عهد الأمير عبد الرحمن ثلاثمائة ألف دينار « فكانوا يعطون جندهم ورجالهم الثلث من ذلك (مائة ألف دينار)،وينفقون في أمورهم ونوائبهم ومؤن أهلهم مائة ألف دينار،ويدخرون لحادث أيامهم

مائة ألف دينار »[1].

واعتمد الأمير عبد الرحمن في تنظيم الجيش على تقسيمه إلى أسلحة رئيسية ثلاثة، وضع على كل سلاح قائداً مستقلاً وولى الجميع قائداً عاماً. وكان في كثير من الأحيان يقود الجيش بنفسه. وكانت تقسيمات الجيش هي: ١ـ الفرسان، ٢ـ المشاة أو الرجالة، ٣ ـ الهندسة (التي تعمل على المجانيق وأدوات الحصار). ويظهر ذلك بوضوح من تصرُّف الأمير عبد الرحمن يوم وجّه قواته لقمع حركة تمرُّد عبيد بن أبان: « حيث دعا صاحب خيله وقال له: امضِ فيمن أمكنك من أصحابك، ثم دعا عبد الحميد بن غانم صاحب الرجالة ». « وفي حصار سرقسطة ... خرج الأمير غازياً، فعند ذلك نصب عليها المجانيق من كل جانب، فيقال إنه حفّها بستة وثلاثين منجنيقاً »[2].

واعتمد في تسليح جيشه على مصانع برديل (بوردو) حيث اكتسبت شهرة خاصة بصناعة السيوف، ثم طوّرت هذه الصناعات بعد ذلك وأصبح الاعتماد في توفير الحاجة منها على ما تنتجه طليطلة ...

وإذا كان معاوية بن أبي سفيان هو « أبو البحرية العربية الإسلامية » إذا صحّ التعبير، وإذا كان الأمويون هم الذين طوّروا هذا السلاح ومنحوه دعمهم وثقتهم، فقد جاء هذا السلاح عند

---

(١) نفح الطيب ١ / ١٤٦ .
(٢) أخبار مجموعة ١٠٣ و ١٠٤ .

حسن الظن به، إذ أمكن بواسطته حماية السواحل الإسلامية من تهديد البحرية البيزنطية، كما أمكن ـ نتيجة لذلك ـ نقل التهديد لعاصمة البيزنطيين ذاتهم، وتمثّل ذلك في حصار القسطنطينية مرات عديدة في عهد معاوية وحفيده سليمان بن عبد الملك (٩٩ هـ = ٧١٧ م) . وكان من نتيجة ذلك تقلُّص دور البحرية البيزنطية وتحوُّل البحر الأبيض المتوسط إلى « بحر الشام » .

ولم يكن نجاح الفتوحات الإسلامية في أفريقيـة واستقرار المسلمين فيها غير نتيجة من نتائج تفوُّق البحرية الإسلامية بعـد تلك الانتكاسات المريرة التي نزلت بالمسلمين وأودت بكبار قادتهم مثل فتح الاسكندرية (٢٥ هـ) ، ومأساة « تهوذة » التي ذهبت بالقائد عقبة بن نافع (٦٣ هـ = ٦٨٣ م) ، وكذلك مأساة «ممس» التي سقط فيها القائد زهير بن قيس البلوي (٧١ هـ = ٦٩٠ م). ولهذا كان من الطبيعي أن يبدأ موسى بن نصير عملياته بفتح جزر الباليئار (مينورقة وميورقة ويابسة) ، وذلك في سنة (٩١ هـ) وقبل الانتقال لفتح الأندلس .

وكان اسطول أفريقية وقاعدته تونس هو الذي يقوم بواجب حماية السواحل في غرب المتوسط، ويضمن تأمين الاتصال وإمداد المسلمين في الأندلس . وعندما استقل الأمير عبد الرحمن الداخل بفتح الأندلس وإقامة حكم الأمويين فيها ، ظهرت له الحـاجة لإنشاء اسطول بحري مستقل يتولى أمر حماية السواحل على جبهتي المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط، وتعاظمت الحاجة بعد

أن قـام المغيث اليحصبي بغزو الأندلس ، في محاولة للقضاء على الحكم الأموي وإقامة الحكم العباسي ،فما كان من الأمير عبدالرحمن إلا أن أصدر تعليماته لإقامة دور الصناعة ، والعمل على بنـــاء السفن ، وتعيين أمير الماء (أميرال) لتنظيم قوة الأسطول .

ولم تمض فترة حكم الأمير عبد الرحمن – على الرغم من كل ما رافقها من أحداث وما تخللها من اضطرابات – حتى اكتمل بناء الأسطول ، وأصبحت القواعـــد والمصانع منتشرة في موانىء طراكونة وطرطوشة وقرطاجنة واشبيلية والمرية وغيرهـا ، وأصبح للأندلس (أندلس الأمويين) اسطولها القوي الذي يدرأ عنها الأخطار الخارجية . وقد ظهرت أهمية الأسطول لا في زمن عبدالرحمن الداخل ، وإنما في العهود التالية ، حيث كان للأسطول الأندلسي دوره في حماية البلاد من غزوات النورمان وسواهم ممن كانوا يتطلعون لتهديد قاعدة المسلمين في الأندلس[1] . وتوافرت

(١) توفي الأمير عبد الرحمن الداخل في قرطبة سنة ١٧٢ هـ = ٧٨٨ م. وقد ظهرت فائدة إنجازه البحري بعد وفاته بعهـــد قصير ، حيث أخذت الأساطيل الأندلسية في فرض وجودها على جزر الباليئار وسردينية وكورسيكا. وعندما اشتدت وطأة إغارات المسلمين على هـذه الجزر ، أرسل أصحابها إلى شارلمان واضعين أنفسهم تحت حمايته .

وفي عام ١٩١ هـ = ٨٠٦م ، اكتسح المسلمون جزيرة كورسيكا ، وكان بيبان ابن شارلمان ملكاً على إيطاليا ، فأرسل قواته البحرية لمجابهة المسلمين . وشعرت البحرية الأندلسية باقتراب اسطول الفرنج ، فعملت على الانسحاب . وظن آدمر Admer كونت جنوة أنه يستطيع مناهضة بحرية المسلمين، فتوجه بقوة بحرية لمطاردتهم،فعادت القوات البحرية الاسلامية وخاضت معركة ضد =

بذلك مصادر القوة المتكاملة في البر والبحر لحماية أندلس الأمويين، علاوة على ما توافر لها من التماسك في ظل وحدة القيادة .

وإذا كان جهد الأمير عبدالرحمن قد تركّز على إقامة الدولة وتنظيمها وتأمين مصادر القوة لهـــا ، فإنه لم يكن أقل اهتماماً بالنهضة العمرانية التي تمثل وجهاً حضارياً من أبرز ما تميّزت به الحضارة الإسلامية . ولعل من أبرز مـــا حفظه التاريخ للأمير عبد الرحمن هو : بناء الرصافة ، وجامع قرطبة .

آ - رصافة الأمير عبد الرحمن (١)

كان ممـــا ابتناه عبد الرحمن بن معاوية في أول أيامه لنزهه

= اسطول جنوة ونجحت في إلحاق الهزيمة به وقتل آدمر ، وأسر ستين راهباً أرسل شارلمان فدية عنهم وفك اسارهم .

وفي عام ١٩٣ هـ = ٨٠٨ م ، توجهت قوة بحرية أندلسية إلى سردينية فاصطدمت بمقاومة ضارية اضطرتها للانسحاب إلى كورسيكا ، حيث جابهتها مرة أخرى حامية الجزيرة بقيادة بورشارد Burchard وأغرقت لها ثلاثة عشر مركباً وأرغمتها على الانسحاب .

وفي عام ١٩٤ هـ = ٨٠٩ م ، توجهت قوة بحريـــة من الأندلس إلى كورسيكا ووصلت في الوقت ذاته قوة بحرية أخرى من أفريقية ، وتم الإنزال في الجزيرة ، وخيم المسلمون في الجهة الشرقية من الجزيرة (بين أطلال مدينة آليريه Aleria) .

(١) الرصافة في الأصل : موضع رصافة بناها هشام بن عبد الملك بقرب الرقة ، وهناك أيضاً رصافة بغداد وهي محلة كبيرة جداً أنشأها المنصور لابنه المهدي وتلقب بعسكر المهدي، منها أئمة، ورصافة البصرة قرية منها شيخان =

وسكناه أكثر أوقاته «منية الرصافة» التي اتخذها بشمال قرطبة منحرفة إلى الغرب، فاتخذ بها قصراً حسناً، ودحا جناناً واسعة ونقل إليها غرائب الفردوس وأكارم الشجر من كل ناحية، وأودعها ما كان استجلبه «يزيد وسفر» رسولاه إلى الشام، من النوى المختار والحبوب الغريبة، حتى نمت بيُمْن الجد وحُسن التربية في المدة القريبة أشجاراً معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل بأرض الأندلس، فاعترف بفضلها على أنواعها. وسمّاها باسم رصافة جدّه هشام بأرض الشام الأثيرة لديه، وامتثله في اختيار رصافته هذه، وكلفه بها، وكثرة تردده عليها، وسكناه أكثر أوقاته بها، فطار لها الذكر في أيامه، واتصل مَن بعده في إيثارها، وكلهم فضّلها وزاد في عمارتها،

= رويا، ورصافة قرطبة، بلدة صغيرة أنشأها عبدالرحمن بن معاوية الداخل، سماها باسم رصافة جده هشام خرج منها فضلاء، ورصافة الكوفة صغيرة، ورصافة نيسابور قرية، ورصافة الأنبار بناها السفاح، ورصافة بليدة بأفريقية، والرصافة قلعة أحدثها الاسماعيلية بالشام... والرصافة كمكناسة بلد بالشام منه أبو منيع عبدالله بن أبي زياد وابن ابنه الحجاج، ومحلة ببغداد منها محمد بن بكار بن جعفر بن محمد بن علي، وبلد بالبصرة منها محمد بن عبدالله بن صيفون، وقرية بواسط منها عبد المجيد، وقرية بنيسابور وبالكوفة وبلد بأفريقية. وتبقى رصافة هشام ورصافة عبدالرحمن في الأندلس هي الأكثر شهرة، وفيها قال الرصافي:

ولا كالرصافة من منزل سقته السحائب صوب الولي
أحن إليها ومن لي بها وأين السري من الموصلي

(نفح الطيب ١ / ١٨١ و ٤٦٧ - ٤٦٩)

وانبرى وصّاف الشعراء لهـا ، فتناغوا في ذلك فيما هو إلى الآن مأثور عنهم ، مستجاد منهم .

وقال بعضهم في ترجمـــة عبد الرحمن الداخل ما صورته : إنه لما تمهّد ملكه شرع في تعظيم قرطبة، فجدّد مغانيها، وشيّد مبانيها، وحصّنها بالسور، وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع، ووسّع فناءه ، وأصلح مساجد الكور ، ثم ابتنى مدينة الرصافة متنزهاً له ، واتخذ بها قصراً حسناً ، وجناناً واسعة ، نقل إليها غرائب الغراس وكرام الشجر من بلاد الشام وغيرها من الأقطار.

وكانت أخت الأمير عبـــد الرحمن الداخل (أُم الأصبغ) ترسل إليه من الشام بالغرائب وكرائم الشجر ، مثل الرمان العجيب المعروف بـ « الرمان السفري » الذي فاض على أرجـاء الأندلس، وصاروا لا يفضلون عليه سواه، أصله من هذه الرصافة.

وقـد وصفه أحد المؤرخين (ابن حيان) وأفرد له فصلاً ، فقال : « إنه الموصوف بالفضيلة ، المقدّم على أجناس الرمان بعذوبة الطعم ، ورقة العجم ، وغزارة الماء ، وحسن الصورة . وكان رسول الأمير عبـد الرحمن إلى الشام في توصيل أخته منها إلى الأندلس، قد جلب طرائف منها من رمان الرصافة المنسوبة إلى هشام ، فعرضه الأمير عبد الرحمن على خواص رجاله مباهياً به ، وكان فيمن حضره منهم « سفر بن عبيد الكلاعي » من جند الأردن ، ويقال هو من الأنصار الذين كانوا يحملون ألوية رسول الله ﷺ في غزواته ، وهم يحملون الألوية بين يدي الخلفـــاء من

بني امية ، فأعطاه من ذلك الرمان جزءاً فراقه حُسنه وخبره، فسار به إلى قرية بكورة « رية » فعالج عجمه (بذوره) واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله حتى طلع شجراً أثمر وأينع ، فنزع إلى عرقه ، وأغرب في حسنه ، فجاء به عما قليل إلى عبد الرحمن ، فإذا هو أشبه شيء بذلك الرصافي ، فسأله الأمير عنه ، فعرفه وجه حيلته ، فاستبرع استنباطه ، واستنبل همّته ، وشكر صنعه ، وأجزل صلته ، واغترس منه بمنية الرصافة وبغيرها من جناته، فانتشر نوعه، واستوسع الناس في غراسه، ولزمه النسب إليه ، فصار يُعرف منذ ذلك الوقت بالرمان السفري »[١] .

ب – جامع قرطبة

لما استقر عبد الرحمن الداخل بالأندلس وعظم أمره ، بنى

---

(١) وصف هذا الرمان أحمد بن فرج الشاعر في أبيات ، منها :

ولابسة صدفاً أحمرا أتتك وقد ملئت جوهرا
كأنك فاتح حق لطيف تضمن مرجانه الأحمرا
حبوباً كمثل لثات الحبيب رضاباً إذا شئت أو منظرا
وللسفر تعزى وما سافرت فتشكو النوى أو تقاسي السّرى
بلى فارقت أيكها ناعماً رطيباً وأغصانها نضرا
وجاءتك معتاضة إذ أتتك بأكرم من عودها عنصرا
بعود ترى فيه ماء الندى ويورق من قبل أن يثمرا
هدية من لو غدت نفسه هديته ظنه قصرا

(نفح الطيب ١ / ٤٦٨)

المسجد الجـــامع ، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار ، وهو مسجد ليس في بلاد الإسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناءً وأتقن صنعة ، وكلما اجتمعت منه أربع سواري كان رأسها واحداً ، ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد في أعلاه وأسفله .

وتبقى شهرة مسجد قرطبـــة تغني عن كثرة الكلام فيه ، وهـذا المسجد العظيم الذي ابتدأ بنيانه عبد الرحمن الداخل لم يكمل في زمانه ، وكمله ابنه هشام ، ثم توالى الخلفاء من بني أمية على الزيادة فيه ، حتى صار المثل مضروباً به . والذي ذكره غير واحد أنه لم يزل كل خليفـة يزيد فيه على مَن قبله ، إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء .

وقال بعض المؤرخين : إن عبد الرحمن الداخـــل أنفق على الجامع ثمانين ألف دينار ، واشترى موضعه ، إذ كان كنيسة ، بمائة ألف دينار . وجاء هشام فعمل على إكمال بناء الجامع بقرطبة ، ثم جاء عبد الرحمن الناصر فعمل على زيادة الجامع في قرطبة (١)

---

(١) وامتدح شاعر الأمير عبد الرحمن بن الحكم في زيادته لجامع قرطبة :

بنيت لله خير بيت ... يخرس عن وصفه الأنام
حج إليه بكل أوب ... كأنه المسجد الحرام
كأن محرابه إذا ما ... حف به الركن والمقام

وقال آخر :

بنى مسجداً لله لم يك مثله ... ولا مثله لله في الأرض مسجد
سوى ما ابتنى الرحمن والمسجد الذي ... بناه نبي المسلمين محمد =

بمقدار رواقين ومات قبل أن يستتمه، فأتمّه ابنه محمد. وفي عهد الحكم تمّ إنفاق مائة ألف وواحد وستين ألف دينار ونيف.

وعندما جاء الحاجب المنصور عزم على زيادة المسجد الجامع، ومن أجل ذلك جلس لأرباب الدور التي نقل أصحابها عنها بنفسه، فكان يؤتى بصاحب المنزل، فيقول له: إن هذه الدار التي لك يا هذا أريد ابتياعها لجماعة المسلمين من مالهم ومن فيئهم لأزيدها في جامعهم وموضع صلاتهم، فشطط واطلب ما شئت. فإذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له، وأن تُشترى له بعد ذلك دار عوضاً منها، حتى أُتي بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة، فقالت: لا أقبل عوضاً إلا داراً بنخلة، فقال: تبتاع لها دار بنخلة، ولو ذهب فيها بيت المال. فاشتريت لها دار بنخلة، وبولغ في الثمن.

وعندما انتهى العمل من جامع قرطبة، أصبح جميع ما فيه من الأعمدة ١٢٩٣ عموداً رخاماً كلها، وباب مقصورة الجامع ذهب، وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أُجري فيه الذهب على الفسيفساء، وثريات المقصورة فضة محضة، وعدد ثريات الجامع ما بين كبيرة وصغيرة مائتان وثمانون ثريا، وعدد الكؤوس

= له عمد حمر وخضر كأنما ... تلوح يواقيت بها وزبرجد
ألا يا أمين الله لا زلت سالماً ... ولا زلت في كل الأمور تسدد
فيا ليتنا نفديك من كل حادث ... وأنك للدنيا وللدين تخلد

(نفح الطيب ١ / ٣٤٨)

٧٤٢٥ كأساً . وكان عدد مَن يخدم الجامع المذكور بقرطبة في دولة ابن أبي عامر ، ويتصرف فيه من أئمـــة ومقرئين وأمناء ومؤذّنين وسدنة وموقدين وغيرهم من المتصرفين ١٥٩ شخصاً . وعدد أبوابه الكبار والصغار واحد وعشرون باباً .

وبالمسجد منبر ليس على معمور الأرض أنفس منه ولا مثله في حسن صنعته ، وخشبه ساج وأبنوس وبقم وعود قاقلي، ويذكر في تاريخ بني أمية أنه أحكم عمله ونقشه في سبع سنين ، وكان يعمل فيه ثمانيـــة صنّـاع لكل صانع في كل يوم نصف مثقال محمدي [١] ، فكان جمـلة ما صرف على المنبر لا غير عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالاً ، وفي الجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لأجل وقوده ، وبهذا الجامع مصحف عثمان .

وذكر غير مؤرخ أنه لما افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأي عمر (رضي الله تعـــالى عنه) بالشام ، من مشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحاً،فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التي كانت داخل مدينتها تحت السور ، وكانوا يسمونها « بشنت بِنْشَجَنْت » ، وابتنوا في ذلك الشطر مسجداً جامعاً ، وبقي الشطر الثاني بأيدي النصارى ، وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة ، واقتنع المسلمون بمـــا في

---

(١) يقال إن الدنانير المحمدية منسوبة الى محمـــد الناصر الموحدي ، وفي الاوقية الواحدة ٢٣ درهما ، وهناك دنانير محمدية تنسب إلى محمدية العراق ، وأخرى إلى مدينة المحمدية بالمغرب . (نفح الطيب ١ / ٥٠٩)

أيديهم ، إلى أن كثروا ، وتزايدت عمارة قرطبة ، ونزلها أمراء العرب ، فضاق عنهم ذلك المسجد وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنون بها ، حتى كان الناس ينالون في الوصول إلى داخل المسجد الأعظم مشقة ، لتلاصُق تلك السقائف ، وقصر أبوابها ، وتطامن سقفها ، حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض .

ولم يزل المسجد على هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبدالرحمن ابن معاوية المرواني إلى الأندلس ، واستولى على إمارتها ، وسكن دار سلطانها قرطبة ، وتمدنت به ، فنظر في أمر الجامع ، وذهب إلى توسعته وإتقان بنيانه ، فأحضر أعاظم النصارى ، وسامهم بيع ما بقي بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليُدخله فيه ، وأوسع لهم البذل وفاءً بالعهد الذي صولحوا عليه ، فأبوا من بيع ما بأيديهم ، وسألوا بعد الجد بهم أن يُباحوا بناء كنائسهم التي هُدمت عليهم بخارج المدينة ، على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طولبوا به ، فتمّ الأمر على ذلك ، وكان ذلك سنة ١٦٨ هـ ، فابتنى عند ذلك عبد الرحمن المسجد الجامع[١] ، الذي

(١) وفي ذلك قال دحية بن محمد البلوي من قصيدة طويلة امتدح فيها عمل الأمير عبد الرحمن الداخل في بناء المسجد :

وأنفق في دين الإله ووجهه ... ثمانين ألفاً من لجين وعسجد
توزعها في مسجد أسه التقى ... ومنهجه دين النبي محمد
ترى الذهب الناري فوق سموكه ... يلوح كبرق العارض المتوقد

(نفح الطيب ١ / ٥٦١)

كمل بناؤه بعد ذلك بثلاثمائة سنة (في زمن الحاجب المنصور).

وفي عهد الحكم المستنصر (٣٠٢ - ٣٦٦ هـ = ٩١٤ - ٩٧٦ م) تمّ بناء أربع ميضآت (برك الوضوء) في كل جانب من جانبي المسجد الشرقي والغربي ، منها اثنتان كبرى للرجال وصغرى للنساء ، أجرى في جميعها الماء في قناة اجتلبها من سفح جبل قرطبة ، إلى أن صبّت ماءها في أحواض رخام لا ينقطع جريانه الليل والنهار . وأجرى فضل هـذا الماء العذب إلى سقايات اتخذها على أبواب هذا المسجد بجهاته الثلاث الشرقية والغربية والشمالية ، أجراها هنالك إلى ثلاث جواب من حياض الرخام استقطعها بمقطع المنستير بسفح جبل قرطبة بالمال الكثير ،وألقاه الرخّامون هنالك، واحتفروا أجوافها بمناقيرهم في المدة الطويلة حتى استوَتْ في صوَرها البديعة لأعين الناس ... أما مئذنة الجامع فيصعب وصفها والحديث عنها . وليس ذلك كله سوى بعض أوصاف الجامع العظيم .

٩ ـ عبد الرحمن وولاية العهد

كان في جملة هموم الأمير عبد الرحمن الداخل مسألة « ولاية العهد » ، تماماً على نحو مـا كان عليه جدّه الأعلى معاوية بن أبي سفيان . غير أن مهمة معاوية كانت أكثر سهولة ، إذ لم يكن له من الولد غير يزيد ، فلم يكن أمامه خيار آخر ، غير أنه كان لعبد الرحمن ولد أكبر هو سليمان ، ولقد وضع الأمير عبد الرحمن ولديه سليمان وهشام موضع الاختبار الدائم ، فقد عانى الأمير عبد الرحمن معاناة لا حدود لها حتى توطدت له السلطة ، وتحمّل من الصعاب وجابه من العقبات ما لا يمكن وصفه ، وكان حريصاً لهذا أن يترك أندلس الأمويين في يدٍ أمينة ، ولهذا فقد كان لا بد له من إعمال الفكر مليّاً والتمهل كثيراً حتى يثق بمن يأتي بعده ، وحتى يعرف أن معاناته وجهده لم يذهبا هدراً .

وكان (الداخل) كثيراً ما يسأل عن ابنيه سليمان وهشام ، فيذكر له أن هشاماً إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً وذكراً لأمور الحرب ومواقف الأبطال ومـا أشبه ذلك ، وإذا حضر

سليان مجلساً امتلأ سخفاً وهذياناً ، فيكبر هشام في عينه بمقدار ما يصفر سليان . وقال يوماً لهشام : لِمَن هذا الشعر :

وَتعْرِفُ فيه من أبيـــه شمائلاً
ومن خاله أو من يزيد ومن حُجرْ
سماحة ذا ، وبرّ ذا ، ووفـــاء ذا
ونائل ذا ، إذا صحا وإذا سكر ؟

فقال له هشام : يا سيدي لامرىء القيس ملك كندة ، وكأنه قاله في الأمير أعزّه الله . فضمّه إليه استحساناً بما سمع منه ، وأمر له باحسان كثير وزاد في عينه .

ثم قال لسليان على انفراد: لمن هذا الشعر؟ وانشده البيتين، فقال : لعلهما لأحد أجلاف العرب ، أمَا لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب ! فاطرق عبد الرحمن وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية .

ومن حكايات هشام مع أبيه الأمير عبد الرحمن ، أن هشاماً كان قاعداً لراحته في عِلِيّة على النهر ، فنظر فإذا رجـــل من قدماء صنائعه من أهل جيان قد أقبل يوضع السير في الهاجرة ، فأنكر ذلك ، وقدّر شراً وقع به من قِبَل أخيه سليان (وكان والياً على جيان) ، فأمر بإدخاله عليه ، فقال له : مهيم يا كناني، فلأمر ما جئت ، وما أحسبك إلا مزعجاً لشيء دهمك . فقال : نعم يا سيدي ، قتل رجلٌ من قومي رجلاً خطأ ، فحملت الدية على العاقلة ، فأخِذَ بها من كنانة عامة ، وحُمِلَ عليَّ من بينهم

خاصة ، وقصدني أخوك بالاعتداء إذ عرف مكاني منك . فمدّ هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر ، وقطع قلادة عقد نفيس كان في نحرها ، وقال له : دونك هذا العقد يا كناني ، وشراؤه عليّ ثلاثة آلاف دينار ، فلا تُخدَعنّ عنه ، وبِعهُ ، وأدّ عن نفسك وعن قومك ، ولا تمكن الرجل من اهتضامك . فقال : يا سيدي ! لم آتك مستجدياً ولا لضيق المال عما حُمّلته ، ولكني لما اعتمدت بظلم صُراح أحببت أن يظهر عليّ عز نصرك ، وأثر ذبّك وامتعاضك وعنايتك ، فأتمجّد بذلك عند من يحسدني على الانتماء إليك . فقال هشام : فما وجه ذلك ؟ فقال : أن تكتب إلى أخيك في الإمساك عني ، والقيام بذمتك لي . فقال : أمسك العقد . وركب من حينه إلى والده الداخل ، واستأذن عليه في وقت أنكره ، فانزعج وقال : ما ما أتى بأبي الوليد في هـــذا الوقت إلا أمر مقلق ، ائذنوا له . فلما دخل سلّم عليه ، ومَثلَ قائماً بين يديه ، فقال له : اجلس يا هشام ! فقال لوالده : أصلح الله الأمير سيدي ، وكيف جلوسي بهمّ وذلّ مزعج ! وحُقّ لمن قام مقامي أن لا يجلس إلا مطمئناً ، ولن يقعدني إلا طيب نفسي باسعاف الأمير لحاجتي ، وإلا رجعت على عقبي . فقال له : حاشى لك من انقلابك خائباً ، فاقعـــد مجاباً مشفعاً . فجلس ، فقال له أبوه : فما الحدث المقلق ؟ فأعلمه ، فأمر بحمل الدية عن الرجل وعن عشيرته من بيت المال ، فسُرّ هشام وأطنب في الشكر . وكتب الأمير عبد الرحمن إلى ولده سليمان في ترك التعرّض للكناني .

ولما دخل الكناني لوداع هشام ، قال له : يا سيدي ! قد تجاوزتُ بك حد الأمنية ، وبلغتُ غاية النصر ، وقد أغنى الله عن العقد المبذول بين يدي العناية الكريمة ، فتعيده إلى صاحبته ، فأبى من ذلك وقال : لا سبيل إلى رجوعه إلينا .

وكان هشام يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز ، فلا غرو بعد ذلك أن يقع اختيار الأمير عبد الرحمن عليه ، ليكون ولياً لعهده ووريثاً لإمارته وخليفة لحكمه [1] .

ولكن، ومع هذا الهاجس الذي كان يؤرق الأمير عبدالرحمن الداخل ، كان هناك هاجس آخر رافق الداخل ، وهو استعادة حكم لأمويين الضائع في المشرق ، إذ كان في نيّته أن يجدد دولة بني مر ان بالشام، وأشاع سنة ١٦٣هـ الرحيل إلى الشام لانتزاعها من بني العباس ، وكاتب جماعة من أهل بيته ومواليه وشيعته ،

---

(١) مما حفظه التاريخ للأمير هشام التزامه بسياسة أبيه، واتصافه بفضائله، وهو ما عبر عنه نفسه بأبيات من الشعر ، ومنها :

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعاً وقدماً لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرة أبادرهـــا مستنفي السيف دارعا
وشافه على الأرض الفضاء جماجماً كأقحاف شريان الهبيد لوامعا
تنبيك أني لم أكن في قراعهم بوان ، وأني كنت بالسيف قارعا
وأني إذا حادوا مراعاً عن الردى فما كنت ذا حيد عن الموت جازعا
حميت ذماري فاستبحت ذمارهم ومن لا يحامي ظل خزيان ضارعا
ولما تساقينا نهـــال حروبنا سقيتهم سجلاً من الموت ناقعا
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم فوافوا منـايا قدرت ومصارعا
(المغرب في حلى المغرب - ذخائر العرب ١٠ - دار المعارف بمصر ١/٤٤ - ٤٥)

ثم أعرض عن ذلك بسبب الاضطرابات التي اجتاحت الأندلس في تلك الفترة ، ومـات الأمير عبد الرحمن الداخل سنة اثنتين وسبعين ومائة (١٧٢ هـ) دون ذلك الأمل . وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعـة أشهر ، وخلّف من الولد عشرين ، منهم أحد عشر رجلاً وتسع إناث. « ذلك هو الأمير عبدالرحمن الداخل » .

عودة الى البداية

« قال أبوجعفر المنصور يوماً لأصحابه: مَن صقر قريش ؟ قالوا : أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكّن الزلازل وحسم الأدواء ، قال : مـا صنعتم شيئاً ، قالوا : فمعاوية ، قال : ولا هذا ، قالوا : فعبد الملك بن مروان . قال : لا . قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال : عبد الرحمن بن معـــاوية ، الذي تخلص بكيده عن سنن الأسنة وظباة السيوف ، يعبر القفر ويركب البحر حتى دخـل بلداً أعجمياً ، فمصّر الأمصار ، وجنّد الأجناد ، وأقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة عزمه . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ، وذللا له صعبه. وعبد الملك ببيعة تقدمت له ، وأمير المؤمنين بطلب عترته ، واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرداً بنفسه ، مؤيداً برأيه ، مستصحباً لعزمه »[1] .

---

(١) أخبـار مجموعة ١١٨ - ١١٩ ، والكامل لابن الأثير ٥ / ١٨٢ و ٦ / ٣٧ ، والاستقصا ١ / ٥٣ - ٥٤ .



الفصل الثاني

صقر قريش والدولة الأموية

١ – الأمويون في الأندلس
٢ – عز الاسلام بالأندلس
٣ – القوة درب العزة



صقر قريش والدولة الأموية

« لا يستوي القاعدونَ من المؤمنين غيرَ أُولي الضرر ، والمجاهدون في في سبيلِ اللهِ بأموالِهم وأنفسهم ، فضّلَ اللهُ المجاهدينَ بأموالهم وأنفسهم على القاعدينَ دَرَجة » .

(سورة النساء ، الآية ٩٥)

كان للأمويين في الشام دور لا يُنكَر في رفع شأن العرب المسلمين وتعريف الدنيا برسالة الإسلام، ولم يكن دور عبدالرحمن الداخل أقل من دور أمويي المشرق في تعريف الغرب بحضارة الإسلام ، فقد أنشأ دولة بقيت متشامخة على أنف الزمن زهاء قرنين ونصف ، وكان من أبرز أمراء الدولة الأموية في الأندلس ما يلي[1] :

---

(١) استمرت سلالة الأمويين حتى سنة ٤٢٢ هـ = ١٠٣١ م ، وتعاقب من سلالتهم على حكم الأندلس ٦ أمراء ، غير أن حكمهم كان متقطعاً بحكم الحموديين ومن قبلهم العامريين . ولم يكن لأمراء الأمويين دور يذكر .

	س. هـ.	س. م.	أمراء الأمويين	مدة حكمهم
١	١٣٨	٧٥٦	عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)	٣٣ عاما
٢	١٧٢	٧٨٨	هشام بن عبد الرحمن الداخل	٨ أعوام
٣	١٨٠	٧٩٦	الحكم بن هشام بن عبد الرحمن	٢٦ عاما
٤	٢٠٦	٨٢٢	عبد الرحمن بن الحكم بن هشام	٣٠ عاما
٥	٢٣٨	٨٥٢	محمد بن عبد الرحمن بن الحكم	٣٤ عاما
٦	٢٧٣	٨٨٦	المنذر بن محمد بن عبد الرحمن	سنتان
٧	٢٧٥	٨٨٨	عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن	٢٤ عاما
٨	٣٠٠	٩١٢	عبدالرحمن بن محمد عبدالله (الناصر)	٥٠ عاما
٩	٣٥٠	٩٦١	الحكم بن عبدالرحمن الناصر (المستنصر)	١٦ عاما
١٠	٣٦٦	٩٧٦	هشام بن الحكم المستنصر (المؤيد)	٣٣ عاما(*)

(*) حكم الأندلس عملياً المنصور أبو عامر (٣٦٦-٣٩٢ هـ = ٩٧٦-١٠٠٢م)، وأعقب حكمه قيام ملوك الطوائف، وكان في ذلك نهاية أمجاد العرب المسلمين في الأندلس وبداية انهيارهم.

١ ــ الامويون في الأَندلس

« لما صارت الأندلس لبني أمية ، وتوارثوا ممالكها ، انقاد إليهم كل أبيّ فيها ، وأطاعهم كل عصيّ ، فعظمت الدولة بالأندلس ، وكبرت الهمم ، وترتبت الأحوال ، وترتبت القواعد ، وكانوا صدراً من دولتهم ، يخطبون لأنفسهم بأنباء الخلائف ، ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة ، وملكوا من بر العدوة ما ضخمت به دولتهم ، وكانت قواعدهم إظهار الهيبة ، وتمكّن الناموس من قلوب العالم ، ومراعاة أحوال الشرع في كل الأمور ، وتعظيم العلماء ، والعمل بأقوالهم ، وإحضارهم في مجالسهم ، واستشارتهم. ولهم حكايات في التاريخ من توجه الحكم على خليفتهم أو على ابنه أو أحد حاشيته المختصين ، وأنهم كانوا في نهاية من الانقياد للحق لهم أو عليهم ، وبذلك انضبط لهم أمر الجزيرة ... إلى أن وقعت الفتنة ، وتمّ ابتغاء الخلافة من غير وجهها الذي رتبت عليه ، فاستبدّت ملوك الممالك الأندلسية ببلادها ، وسُمّوا بملوك الطوائف واستبدّوا . وكان فيهم مَن خطب للخلفاء المروانيين وإن لم يبقَ لهم خلافة ، ومنهم مَن خطب للخلفاء العباسيين المجمع

على إمامتهم . وصار ملوك الطوائف يتبـاهون في أحوال الملك حتى في الألقاب ، فآل أمرهم إلى أن تلقبوا بألقاب الخلفـاء ، وترفـّعوا إلى طبقات السلطنة العظمى » [١] .

تظهر المقولة السابقة – على قصرها – مجموعة من المعطيات المتعلقة بالدور الأموي في بناء الأندلس ، وستأتي بعـــد ذلك مناقشة بعض هذه المعطيات، إلا أن الأمر المهم هنا هو الاشارة إلى حالة الأندلس قبل قيام العهد الأموي وأثناءه وبعد انقضائه وفقاً لجميع الشواهد التاريخية ، فقد كانت الأندلس قبل العهد الاموي ممزقة بين مراكز القوى المتناحرة، ثم جاء العهد الاموي فوحّد الجزيرة ، ونظم قدراتها وإمكاناتها ، وحشد كل القوى المتوافرة للبناء الحضاري ولتلبية متطلبات الحرب ، وبذلك ازدهرت حضارة العرب المسلمين وأينعت . وعندما انتزعت القيـــادة من الامويين عادت الجزيرة مزقاً بين مراكز القوى (ملوك الطوائف) ، الأمر الذي أدّى إلى ضعف المسلمين في الأندلس ، فكان في ذلك بداية الانهيار الذي لم يلبث مع الزمن

---

(١) أصبح من عادة الأمراء والحكام في عهد ملوك الطوائف، مباهاة بعضهم بعضاً بالألقاب ومنافسة الخلفاء في ألقابهم، وكان عباد بن محمد بن عباد قد تلقب بالمعتضد ، مقتفياً سيرة المعتضد العباسي أمير المؤمنين ، وتلقب ابنه محمـد بن عباد بالمعتمد ، وفي ذلك قال الشاعر ابن رشيق القيرواني :

مما يزهدني في أرض أندلس ... تلقيب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

(وفيات الأعيان لابن عمار الأندلسي ٤ / ٥٢ ، ونفح الطيب ١ / ٢١٤)

أن انتهى إلى (مأساة الأندلس) وانهيــــار حكم المسلمين والقضاء على وجودهم بأحكام « محـاكم التفتيش » . ذلك هو فضل الأمير عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) على العرب المسلمين وعلى الحضارة الانسانية كلها .

وقد يكون من المناسب هنـا استقراء بعض الملامح للأجهزة التنظيمية والتقاليد التي وضع أساسها الأمير عبدالرحمن الداخل، ثم جـاء خلفاؤه فعملوا على تطويرها ، فكان في ذلك بعض قوة الأندلس – أندلس الأمويين – وذلك وفقاً لمـا أوردته المصادر التاريخية ، وبالأسلوب الذي أوردته أيضاً .

آ – الوزارة : وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فإنها كانت في مدة بني أمية مشتركة في جمـاعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة،ويخصهم بالمجالسة، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب . وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة لذلك ، إلى أن كانت ملوك الطوائف،فكان الملك منهم يسمى بالحاجب (لعظم اسم الحاجب في الدولة المروانيـــة وأنه كان نائباً عن خليفتهم) . ويرى أن هذه السمة هي أعظم ما تنوفس فيه وظفر به،وهي موجودة في أمداح شعرائهم وتواريخهم . وصار اسم الوزارة عاماً لكل مَن يجالس الملوك (ملوك الطوائف) ويختص بهم ، وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يُعرَف « بذي الوزارتين » . وأكثر مـا يكون فاضلاً في علم الأدب، كابن زيدون . وقد لا يكون كذلك

بل عالماً بأمور الملك خاصة .

ب – **الكتابة** : وأما الكتابة فهي على ضربين : أعلاهما كاتب الرسائل ، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس ، وأشرف أسمائه « الكاتب » ، وبهذه السمة يخصه مَن يعظمه في رسالة . وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة ، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه ، من تسلط الألسن في المحافل ، والطعن عليه وعلى صاحبه . والكاتب الآخر هو كاتب الزمام ، هكذا يعرفون كاتب الجهبذة . ولا يكون بالأندلس وبرّ العدوة لا نصرانياً ولا يهودياً البتة ، إذ هذا الشغل نبيه يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس ووجوههم .

ج – **الخراج** : وصاحب الأشغال الخراجية في الأندلس أعظم من الوزير ، وأكثر أتباعاً وأصحاباً ، وأجدى منفعة ، فإليه تميل الأعناق ، ونحوه تُمَدّ الأكف ، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظّار . ومع هذا ، إن تأثلت حالته ، واغترّ بكثرة البناء والاكتساب ، نُكب وصودر ، وهذا راجع إلى تقلّب الأحوال وكيفية السلطان .

د – **القضاء** : وأما خطة القضاء بالأندلس فهي أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلّقها بأمور الدين ، وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضي . هذا وضعها في زمان بني أمية ومَن سلك مسلكهم ، ولا سبيل أن يتسمى بهذه السمة

إلا مَن هو والٍ للحكم الشرعي في مدينة جليلة ، وإن كانت صغيرة فلا يطلق على حاكمها إلا مسدد ، خاصة ، وقاضي القضاه يقال له : قاضي القضاة وقاضي الجماعة .

هـ – خطة الشرطة : وأما خطة الشرطة بالأندلس فإنها مضبوطة ، وهي معروفة بهذه السمة ، ويُعرف صاحبها في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل. وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن يجب عليه دون استئذان السلطان ، وذلك قليل ، ولا يكون إلا في حضرة السلطان الأعظم ، وهو الذي يحدُّ على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه ، قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضي . وكانت خطة القاضي أوقر وأتقى عندهم من ذلك .

و – الحسبة : وأما خطة الاحتساب فإنها عندهم موضوعة في أهل العلم والفِطَن ، وكان صاحبها قاضٍ ، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكباً على الأسواق ، وأعوانه معه ، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان ، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم ، وكذلك للثُّمْن ، وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبي الصغير أو الجارية الرعناء ،فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق في معرفة الأوزان ، وكذلك اللحم عليه ورقة بسعره ، ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حَدَّ له المحتسب في الورقة ، ولا يكاد تخفى خيانته ، فإن المحتسب يدسُّ عليه صبياً

أو جارية يبتاع أحدهما منه ، ثم يختبر المحتسب الوزن ، فإنْ وجد نقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس ، فلا تسأل عما يلقى ، وإنْ كثر ذلك منه ولم يَتُبْ بعد الضرب والفضح والتشهير (التجريس) في الأسواق ، نُفي من البلد . ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه ، لأنها عندهم تدخل في جميع المبتاعات وتتفرع إلى ما يطول ذكره .

ز - **خطة الطواف بالليل :** وأما خطة الطواف بالليل وما يقابل من المغرب أصحاب أرباع في المشرق ، فإنهم يُعرفون في الأندلس بالدرّابين ، لأن بلاد الأندلس لها دروب بأغلاق تُغلَق بعد العتمة . ولكل زقاق بائت فيه ، له سراج معلّق وكلب يسهر وسلاح مُعَدّ ، وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم ، وإغيائهم في أمور التلصص ، إلى أن يظهروا على المباني المشيدة ، ويفتحوا الأغلاق الصعبة ، ويقتلوا صاحب الدار خوف أن يقرّ عليهم أو يطالبهم بعد ذلك. ولا تكاد في الأندلس تخلو من سماع «دار فلان دُخِلت البارحة» و«فلان ذبحه اللصوص على فراشه». وهذا يرجع التكثير منه والتقليل إلى شدة الوالي ولينه ، ومع إفراطه في الشدة وكون سيفه يقطر دماً ، فإن ذلك لا يعدم . وقد آل الحال عندهم إلى أن قتلوا على عنقودٍ سرقه شخص من كرْم وما أشبه ذلك ، فلم ينتهِ اللصوص [١] .

---

(١) نفح الطيب ١ / ٢١٦ - ٢١٩ .

واستطاع الأمير عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) أن يسوس الناس ويصرف فاعلياتهم للابداع، فتكوّن بذلك مجتمع عربي - إسلامي يختلف في كثير من خصائصه عن مجموعة الشرائع الديموغرافية (السكانية) التي تكوّن منها المجتمع الأندلسي ذاته . وبكلمة اخرى ، فقد كان قيام الدولة الاموية بجهد الأمير عبد الرحمن بن معاوية بمثابة البوتقة التي صهرت مسلمي الأندلس ، من عرب وصقالبة وأجناس مختلفة من كل شعوب الأرض ، وكوّنت منهم مجتمعاً فريداً أسهبت المصادر التاريخية - العربية والغربية - في التعرض له ووصفه .

وقد يكون من المناسب استقراء بعض ملامح ذلك المجتمع، لمعرفة ما تميّز به من خصائص ، وما انفرد به من الفضائل والعادات .

آ - الأندلسيون والتشريع

وأما قواعد أهل الأندلس في ديانتهم ، فإنها تختلف بحسب الأوقات والنظر إلى السلاطين ، ولكن الأغلب عندهم إقامة الحدود، وإنكار التهاون بتعطيلها، وقيام العامة في ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان . وقد يلج السلطان في شيء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبأون بخيله ورَجْله حتى يخرجوه من بلدهم . وهذا كثير في أخبارهم . وأما الرجم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال ، إذا لم يعدلوا ، فكلّ يوم .

ب – الأندلسيون والتصوف

وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدَّرْوزة (التسوُّل والكدية) التي تكسل عن الكد وتحوج الوجوه للطلب في الأسواق، فمستقبحة عندهم إلى النهاية. وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب (يتسوّل) سَبّوه وأهانوه، فضلاً عن أن يتصدقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلاً إلا أن يكون صاحب عذر.

ج – الأندلسيون والعلوم والآداب

وأما حال أهل الأندلس في فنون العلوم، فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز. فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يُرى فارغاً عالة على الناس، لأن هذا عندهم في نهاية القبح. والعالِم عندهم مُعَظَّمٌ من الخاصة والعامة، يُشار إليه ويُحال عليه، وينبه قدره وذكره عند الناس، ويُكْرَم في جوار أو ابتياع حاجة أو ما أشبه ذلك.

ومع هذا، فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة، فهم يقرؤون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جارياً. فالعالِم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يعلم. وكل العلوم لها عندهم حظ

واعتناء – إلا الفلسفة والتنجيم – فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم، ولا يُتظاهر بهما خوفَ العامة، فإنه كلما قيل: « فلان يقرأ الفلسفة » أو « يشتغل بالتنجيم »، أطلقت عليه العامة اسم « زنديق » وقيّدت عليه أنفاسه، فإن زلَّ في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرُّباً لقلوب العامة. وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وُجدت، وبذلك تقرَّب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن.

وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة. ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم.

وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى إن الملثمين (المرابطين) كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه. وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السمات.

والنحو عندهم في نهاية من علوّ الطبقة، حتى إنهم في هذا العصر – وبعد زوال العصر الإسلامي من الأندلس – لا زالوا كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدّة، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه، كمذاهب الفقه. وكل عالم في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو – بحث لا

تخفى عليه الدقائق - فليس عندهم بمستحق للتمييز ، ولا سالم من الازدراء ، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية . وإذا تكلم الخاص منهم بالإعراب ، وأخذ يجري على قوانين النحو ، استثقلوه واستبردوه . ولكن ذلك مراعى عندهم ، وبه يتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم . ومَن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل .

والشعر عندهم له حظ عظيم ، وللشعراء من ملوكهم وجاهة ، ولهم عليهم وظائف ، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم ، إلا أن يختل الوقت ويغلب الجهل في حين ما ، ولكن هذا الغالب ، وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً ، فإنه يعظم في نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العُجب .. عادة قد جُبلوا عليها .

د - الزيّ الأندلسي في السلم والحروب

وأما زيّ أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم ، لا سيما في شرق الأندلس ، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلا وهو بعمامة ، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك. ولقد رأيت عزيز بن خطاب [1] ، أكبر عالم بمرسية ، حضرة

(١) عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب القيسي ، أبو بكر مرسي ، مرقسطي الأصل ، كان زاهداً عابداً ناشراً للعلم ، حتى امتحن برياسة بلده فلم تحمد سيرته وقتل سنة ٦٣٦ هـ = ١٢٣٨ م . (نفح الطيب ١ / ٢٢٢)

السلطان في ذلك الأوان ، وإليه الإشارة ، وقد خطب له بالملك في تلك الجهة ، وهو حاسر الرأس ، وشيبه قد غلب على سواد شعره . وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم مَن تراه بعمة في شرق منها أو في غرب . وابن هود ، الذي ملك الأندلس في أواخر الأيام الأندلسية ، رأيته في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة ، وكذلك ابن الأحمر الذي معظم الأندلس بقيت في يده .

وكثيراً ما يتزيّا سلاطينهم وأجنادهم بزيّ النصارى المجاورين لهم . فسلاحهم كسلاحهم ، وأقبيتهم من « الإشكرلاط »[1] وغيره كأقبيتهم ، وكذلك أعلامهم وسروجهم ، ومحاربتهم بالتراس والرماح الطويلة للطعن . ولا يعرفون الدبابيس ولا قسيّ العرب ، بل يعدون قسيّ الفرنج للمحاصرات في البلاد ، أو تكون للرجالة عند المصافة للحرب ، وقليلاً ما تصبر الخيل عليهم أو تمهلهم لأن يوتروها .

ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم مَن يمشي دون طيلسان ، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ المعظمون . وغفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً ، والصفر مخصوصة باليهود ، ولا سبيل إلى يهودي أن يتعمم البتة . والذؤابة لا يرخيها إلا العالم ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وإنما يسدلونها

---

(١) الاشكرلاط ، ويقال أيضاً الاشكيلاط Ecarlate : نوع من الجوخ (الصوف) قرمزي أحمر .

من تحت الأذن اليسرى .

وهذه الأوضاع التي بالمشرق في العمائم لا يعرفها أهل الأندلس، وإن رأوا في رأس مشرقي داخل إلى بلادهم شكلاً منها، أظهروا التعجب والاستظراف ، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها ، لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم، وكذلك في تفصيل الثياب.

٥ – تدبير الأندلسيين ومروءتهم .

وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم مَن لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه، فيطويه صائماً، ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها .

والأندلسيون أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال ، فلذلك قد يُنسَبون للبخل ، ولهم مروءات على عادة بلادهم، لو فَطِنَ لها حاتم لفضَّل دقائقها على عظائمه . ولقد اجتزتُ مع والدي على قرية من قراها [١] ، وقد نال منا البرد والمطر أشد النَّيل ، فأوينا إليها ، وكنا على حال ترقُّب من السلطان ، وخلوّ من الرفاهية ، فنزلنا في بيت شيخ من أهلها ، من غير معرفة متقدمة، فقال لنا : إن كان عندكم ما أشتري لكم فحماً تسخنون به ، فإني أمضي فأضرم ناراً . فجاء ابن له صغير ليصطلي ، فضربه ، فقال له والدي : لمَ ضربته ؟

(١) الحديث للمقري في نفح الطيب ١ / ٢١٩ – ٢٢٤ .

فقال : يتعلم استغنام أموال الناس والضجر للبرد من الصفر . ثم لما جاء النوم قال لابنه : أعطِ هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه ، فدفع كساءه إليّ . ولما قمنا عند الصباح وجدت الصبي منتبهاً ويده في الكساء ، فقلت ذلك لوالدي ، فقال : هـذه مروءات أهل الأندلس ، وهـذا احتياطهم ، أعطاك الكساء وفضّلك على نفسه ، ثم فكّر في أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص ، فلم يَطِبْ له منـام حتى يأخذ كساءه خوفاً من انفصالك بها وهو نائم ، وعلى هذا الشيء الحقير فقِس الشيء الجليل .

و - قرطبة عاصمة الدنيا

اتخـذ الأمويون من قرطبة عاصمة لهم ، ووسموها بميسمهم ، واختصوها بفضلهم ورعوها بعنايتهم ، ففاضت على الدنيـا علماً ونوراً ، وزَهَتْ بأمجادهم فخراً وسؤدداً . ولا زال جامعها قائماً يذكر سكان الأرض بما وصل إليه المسلمون من القوة والعزة ، يوم حمل العرب رسالة الإسلام وعملوا بهـا . وفي ذلك تقول المصادر التاريخية :

« وأما قرطبة فكرسي المملكة في القـديم ، ومركز العلم ومنار التقى ومحل التعظيم والتقديم ، بهـا استقرّت ملوك الفتح وعظماؤه ، ثم الملوك المروانية ... ومعروف عن أهلها تعظيمهم للشريعة ، ومنافستهم في السؤدد بعلمهـا ، وأن ملوكها كانوا يتواضعون لعلمائها ، ويرفعون أقدارهم ، ويصدرون عن آرائهم ،

وأنهم كانوا لا يقدّمون وزيراً ولا مشاوراً ما لم يكن عالماً ، حتى إن الحكمَ المستنصر ، لما كره له العلماء بُغض الخمر ، همّ بقطع شجرة العنب من الأندلس ، فقيل له : فإنها تُعصر من سواها ، فأمسك عن ذلك . وأنهم كانوا لا يقدّمون أحداً للفتوى ولا لقبول الشهادة حتى يطول اختباره ، وتُعقد له مجالس المذاكرة ، ويكون ذا مال في غالب الحال ، خوفاً من أن يميل به الفقر إلى الطمع فيما في أيدي الناس ، فيبيع به حقوق الدين .

وقد أراد الحكم الربضي – على ما هو معروف – تقديم شخص من الفقهاء يختص به للشهادة ، فأخذ في ذلك مع يحيى بن يحيى راوية مالك وعبدالملك بن حبيب وغيرهما من أعلام العلماء ، فقالوا له : هو أهل ، ولكنه شديد الفقر ، ومَن يكون في هذه الحالة لا تأمنه على حقوق المسلمين ، لا سيما وأنت تريد انتفاعه وظهوره في الدخول في المواريث والوصايا وأشباه ذلك. فسكت ولم يرَ منازعتهم .

وبقي مهموماً من كونهم لم يقبلوا قوله ، فنظر إليه ولده عبد الرحمن – الذي وليَ الملك بعده – وعلى وجهه أثر ذلك ، فقال : ما بالك يا مولاي ؟ فقال : ألا ترى لهؤلاء الذين نقدمهم وننوّه عند الناس بمكانهم ، حتى إذا كلفناهم ما ليس عليهم فيه شطط ، بل ما لا يعيبهم أو يعنيهم ، ولا هو مما يرزؤهم شيئاً ، صدّونا عنه وغلقوا أبواب الشفاعة ، وذكر له ما كان منهم ، فقال : يا مولاي ! أنت أولى الناس بالإنصاف، إن هؤلاء ما

قدّمتهم أنت ولا نوّهت بهم ، وإنمـا قدّمهم ونوّه بهم علمهم ، أو َكنتَ تأخـذ قوما جهّالاً فتضعهم في مواضعهم ؟ قال : لا ! قال : فأنصفهم فيما تعبوا فيه من العلم لينالوا به لذة الدنيا وراحة الآخرة . قال : صدقت ، ثم قال : وأما كونهم لم يقبلوا هـذا الرجل لشدة فقره ،فالعلة في ذلك تنحسم بما يبقي لك في الصالحات ذكراً ، قال : وما هو ؟ قال : تعطيه من مالك قدر مـا يلحق به من الغنى ما يؤهله لتلك المنزلة ، ويزيل عنك هذا خجل ردّهم لك ، وتكون هذه مكرمة ما سبقك إليها أحد . فتهلّـل وجه الحكم وقال : إليّ .. إليّ .. إنهـا والله شنشنة عبشمية ، وإن الذي قال فينا لصادق :

وأبناء أملاك خضارم سادة صغيرهم عند الأنام كبير

ثم استدعى عبد الملك بن حبيب ، وسأله عن قدر مـا يؤهله لتلك المرتبة من الغنى ، فذكر له عدداً ، فأمر له به في الحين ، ونبّه قدره بأن أعطاه من إسطبله مركوباً . ثم إنه إذا كان له من الغنى ما يكفه عن أموال الناس ، ومن الدين ما يصدّه عن محارم الله تعالى ، ومن العلم ما لا يجهل به التصرف في الشريعة ، أباحوا له الفتوى والشهادة ، وجعلوا علامة لذلك بين النـاس : القالس والرداء .

٢ ــ عز الاسلام بالأندلس

وضع الأمير عبد الرحمن الداخل أساس بنيان ملك بني أميه بالأندلس ، وجاء أمراء بني أمية تباعاً وهم يزيدون من رفعة البنيان سمواً وشموخاً ، حتى إذا ما جاء عهد الأمير عبد الرحمن الناصر – ثامن الأمراء الأمويين بالأندلس (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ = ٩١٢ – ٩٦١ م) بلغت الدولة الأموية غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادته الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبقَ أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنج والمجوس وسائر الأمم إلا وافدت عليه خاضعة راغبة،وانصرفت عنه راضية . ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى (وهو يومئذ قسطنطين) فإنه هاداه ، ورغب في موادعته ، وكان وصول أرساله في صفر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة (٩٤٩ م) .

وتأهّب الناصر لورودهم وأمر أن يُتلقوا أعظم تلقٍ وأفخمه وأحسن قبول وأكرمه ، وخرج إلى لقائهم ببجانة يحيى بن محمد ابن الليث وغيره لخدمة أسباب الطريق ، فلما صاروا بأقرب

الحلات من قرطبة خرج إلى لقائهم القواد في العدد والعدة والتعبية فتلقوهم قائداً بعد قائد، وكمل اختصاصهم بعد ذلك، بأن أخرج إليهم الفتيين الكبيرين الخصيين ياسراً وتماماً، إبلاغاً في الاحتفال بهم، فلقيام بعد القواد، فاستبان لهم بخروج الفتيين إليهم بسط الناصر وإكرامه، لأن الفتيان حينئذ هم عظماء الدولة، لأنهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه، وبيدهم القصر السلطاني، وأنزلوا بمنية ولي العهد الحكم المنسوبة إلى نصر بعدوة قرطبة في الربض. ومنعوا من لقـاء الخاصة والعامة جملة، ومن ملابسة الناس طراً، ورتب لحجابتهم رجال تخيروا من الموالي ووجوه الحشم فصيروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلا لأربع دول، لكل دولة أربع منهم.

ورحل النـاصر لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه، فقعد لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة في بهو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلاً، وقعد عن يمينه ولي العهد من بنيه الحكم، ثم عبيد الله ثم عبد العزيز أبو الأصبغ ثم مروان، وقعد عن يساره المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان، وتخلف عبد الملك لأنه كان عليلاً لم يطق الحضور. وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم.

وقد بسط صحن الدار أجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك

(السجاد) وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور، فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى « قسطنطين بن ليون » وهو في ورق مصبوغ لوناً سماوياً مكتوب بالذهب بالخط الاغريقي ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط اغريقي أيضاً فيها وصف هديته التي أرسل بها وعددها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورة المسيح، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده ، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج ، وكان في ترجمته عنوان الكتاب في سطر منه قسطنطين ورومانس المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم، وفي سطر آخر : العظيم الاستحقاق المفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس، أطال الله بقاءه.

ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال أحبَّ أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه، لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانه، وتصف ما تهيأ من توطيد الخلافة في دولته ، وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه ولي عهده بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء، ويقدمه أمام نشيد الشعراء ، فأمر الحكم صنيعه الفقيه محمد بن عبد البر الكسنياني بالتأهب لذلك. وإعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدي

الخليفة ، وكان يدعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره .

وحضر المجلس السلطاني، فلما قام يحاول التكلم بما رأى هاله وبهره هولُ المقام وأبهة الخلافة ، فلم يهتدِ إلى لفظة ، بل غشي عليه وسقط إلى الأرض ، فقيل لأبي علي البغدادي إسماعيل بن القاسم القالي صاحب الأمالي والنوادر، وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق وأمير الكلام وبحر اللغة : « قم فارفع هذا الوهي ، فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه ﷺ – ويذكر المؤرخون أن القالي كان هو المأمور بالكلام أولاً والمعَدّ لذلك – ثم انقطع القول بالقالي ، فوقف ساكتاً مفكراً في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه ، لكن أبا علي القالي انقطع، وبهت وما وصل إلا قطع، ووقف ساكتاً متفكراً لا ناسياً ولا متذكراً، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد – وكان ممن حضر في زمرة الفقهاء – قام من ذاته ، بدرجة من مرقاته ، فوصل افتتاح أبي علي لأول خطبته بكلام عجيب ، ونادى في الاحسان من ذلك المقام كل مجيب ، يسحه سحاً كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة، وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو علي البغدادي ».

ثم انصرف الرسل بعد انتهاء مراسم الاحتفال ، وبعث الناصر معهم هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويحسن الاجابة ،ورجع بعد سنتين وقد أحكم من ذلك ما جاء ، وجاءت معه رسل قسطنطين . ثم جاء رسول من ملك الصقالبة (وهو

يومئذ هوتو) [١] ورسول آخر من ملك الألمان ، ورسول آخر من ملك الافرنج وراء البرت – البيرنة – (وهو يومئذ أوقة)[٢] ورسول آخر من ملك الافرنج بقاصية المشرق (وهو يومئذ كلدة) [٣] واحتفل الناصر لقدومهم، وبعث مع رسول الصقالبة ربيعاً الأسقف إلى ملكهم هوتو ورجع بعد سنتين .

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة للهجرة (٩٥٥ م) جاء رسول أردون يطلب السلم، فعقد له، ثم بعث في سنة خمس وأربعين وثلاثمائة يطلب إدخال فرذلند قومس قشتالة في عهده فأذن له في ذلك وأدخل في عهده ، وكان « غرسية بن شانجة » [٤] قد استولى على جيليقية بعد أبيه « شانجة » بن فرويلة [٥] ثم انتقض عليه أهل جيليقية ، وتولى كبرهم قومس قشتالة فرذلند المذكور ومال إلى أردون بن رذمير – وكان غرسية بن شانجة حافداً – حفيداً – لطوطة [٦] ملكة البشكنس . فامتعضت لحافدها غرسية ، ووفدت على النـــاصر سنة سبع وأربعين وثلاثمائة

---

(١) هوتو : Otton وورد اسمه في المصادر العربية بكتابات مختلفة (دوقو وذواقو وذوقوه وذوفو) .

(٢) أوقة : Hugo وهو Hugues D'Arles مركيز البروفانس .

(٣) كلدة : Guido وهو ابن أدلبرت مركيز نسكانية .

(٤) شانجة : Sancho ملك البشكنس (الباسك) أي منطقـــة نبرة (Navarra) نافار .

(٥) فرويلة : Fruela .

(٦) طوطة : Teoda وفي تاريخ بروفنسال ٢ / ٧٣ Tdoa .

(٩٥٨ م) ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن رذمير الملك ، وإعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ، ونصره من عدوه .

وجاء الملكان معها ، فاحتفل الناصر بقدومهم ، وعقد الصلح لشانجة وأمه ، وبعث العساكر مع غرسية ملك جليقية فرد عليه ملكه ، وخلع الجلالقة طاعة أردون إليه ، وبعث إلى الناصر يشكره على فعلته ، وكتب إلى الأمم في النواحي بذلك وبما ارتكبه فرذلند قومس قشتالة في نكثه ووثوبه ، ويعيره بذلك عند الأمم ، ولم يزل الناصر على موالاته وإعانته إلى أن هلك ، ولما وصل رسول كلدة ملك الافرنج بالشرق كما تقدم ، وصل معه رسول ملك برشلونة وطركونة راغباً في الصلح ، فأجابه الناصر ، ووصل بعده رسول صاحب روما يخطب المودة فأجيب .

جاءت بعد ذلك فترة حكم المستنصر «الحكم بن عبدالرحمن» ٣٥٠ – ٣٦٦ = ٩٦١ – ٩٧٦ م فزادت دولة بني أمية عزاً على عزتها ، وسمت رفعة على رفعتها ، وتعاظمت بقوتها حتى ازدهت على الدنيا ، وتابع الحكم سيرة أبيه في بذل المستطاع ، وأكثر من المستطاع ، من أجل زيادة قوة الدولة ورفعتها [١] .

---

(١) جاء في نفح الطيب ١ / ٣٧٩ وأزهار الرياض ٢ / ٢٨٢ والمغرب ١٧٧/١ ما يلي: « حكي أنه وجد بخط الناصر – رحمه الله – أيام السرور التي صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من =

ويمكن هنا العودة مرة أخرى لما بلغته أندلس المسلمين من المجد والسؤدد من خلال مطالعة مراسم الاستقبال أيام الحكم المستنصر بالنص التاريخي الذي وردت فيه ، حيث جاء ما يلي : « وفي آخر صفر من سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة (٩٦٢ م) أخرج الخليفة الحكم المستنصر مَوْلِيَيْه محمداً وزياداً ابني أفلح الناصري بكتيبة من الحشم لتلقي غالب الناصري صاحب مدينة سالم المورد للطاغية أردون بن أذفونش الخبيث في الدولة، المتملك على طوائف من أمم الجلالقة والمنازع لابن عمه الملك قبله شانجة بن رذمير ، وتبرع هذا اللعين أردون بالمسير إلى باب المستنصر بالله من ذاته ، غير طالب إذن ولا مستظهر بعهد ، وذلك بعدما بلغه اعتزام الحكم المستنصر بالله في عامه ذلك على الغزو إليه ، وأخذه في التأهب له ، فاحتال في تأميل المستنصر بالله والارتماء عليه وخرج قبل أمان يعقد له أو ذمة تعصمه في عشرين رجلاً من وجوه أصحابه، تكنفهم غالب الناصري الذي خرجوا إليه، فجاء به نحو مولاه الحكم، وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم ثم تحركا بهم ثاني يوم نزولهم إلى قرطبة فأخرج المستنصر بالله إليهم هشاماً المصحفي في جيش عظيم كامل التعبية

= كذا ، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً ، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها، هذا الخليفة الناصر، حلف السعود ، المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود ، ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام ، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوماً ، فسبحان ذي العزة القائمة ، والمملكة الدائمة لا إله إلا هو » .

وتقدموا إلى باب قرطبة، فمروا بباب قصرها، فلما انتهى أردون إلى ما بين باب السدة وباب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله، فأشير إلى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة فخلع قلنسوته، وخضع نحو مكان القبر، ودعا، ثم رد قلنسوته إلى رأسه .

وأمر المستنصر بإنزال أردون في دار الناعورة ، وقد كان تقدم في فرشها بضروب الغطاء والوطاء ، وانتهى من ذلك إلى الغاية ، وتوسع في الكرامة له ولأصحابه ، فأقام بها الخميس والجمعة ، فلما كان يوم السبت تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد إقامة الترتيب وتعبية الجيوش والاحتفال في ذلك من العدد والأسلحة والزينة . وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في المجلس الشرقي من مجالس السطح ، وقعد الإخوة وبنوهم والوزراء ونظراؤهم صفاً في المجلس، فيهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي والحكام والفقهاء ، فأتى محمد بن القاسم بن طملس بالملك أردون وأصحابه وعالي لبوسه (لباسه) ثوب ديباجي رومي أبيض ، و « بليوال » [1] من جنسه وفي لونه ، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر .

وقد حفَّته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس يؤنسونه ويبصرونه ، فيهم وليد بن خيزران قاضي النصارى

---

(١) بليوال : Pluvial أو Palio ، وهي تعني المطر الذي يتم ارتداؤه فوق اللباس ، ووردت في المصادر العربية بليون وبلبوال وبلنوال وبليوان .

بقرطبة ، وعبيدالله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما ، فدخل بين صفي الترتيب يقلب الطرف في نظم الصفوف، ويجيل الفكر في كثرتها، وتظاهر أسلحتها ورائق حليتها، فراعهم ما أبصروه، وصلّبوا على وجوههم، وتأمّلوا ناكسي رؤوسهم ، غاضّين من أجفانهم قد سكرت أبصارهم،حتى وصلوا إلى باب الأقباء أول باب قصر الزهراء ، فترجّل جميع مَن كان خرج إلى لقائه، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابهم حتى انتهوا إلى باب السيدة، فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشي على الأقدام فترجّلوا ، ودخل الملك أردون وحده راكباً مع محمد بن طُمْلُس[1] ، فأنزل في « برطل » [2] البهو الأوسط من الأبهاء القبلية التي بدار الجند ، على كرسي مرتفع مكسو الأوصال بالفضة، وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئه شانجة بن رُذْمير الوافد على الناصر لدين الله (رحمه الله تعالى) .

فقعد أردون على الكرسي، وقعد أصحابه بين يديه، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه ، فتقدم يمشي وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح ، فلما قابل المجلس الشرقي ، الذي فيه المستنصر بالله ، وقف وكشف رأسه

---

(١) محمد بن قاسم بن طملس : كان يشغل في أيام المستنصر منصب الوزير صاحب الحشم ، وقد قتل في حروب العدوة أول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة بفحص مهران . (نفح الطيب ١ / ٣٨٩)

(٢) برطل (يقصد المدخل) ، وفي الاسبانية Portal .

وخلع برنسه ، وبقي حاسراً إعظاماً لما بان له من الدنوّ إلى السرير ، واستُنْهِض فمضى بين الصفين المرتبين في ساحة السطح ، إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو ، فلما قابل السرير خرّ ساجداً سويعة ، ثم استوى قائماً ، ثم نهض خطوات ، وعاد إلى السجود ، ووالى ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدي الخليفة ، وأهوى إلى يده فناوله إياها ، وكرّ راكعاً مقهقراً على عقبه إلى وساد ديباج مثقل بالذهب ، جعل له هنالك ، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير ، فجلس عليه ، والبهر قد علاه ، وأنهض خلفه مَن استدنى من قوامسه وأتباعه ، فدنوا ممتثلين في تكرير الخنوع ، وناولهم الخليفة يده ، فقبّلوها ، وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم .

ووصل بوصولهم « وليد بن خيزران قاضي النصارى بقرطبة » [1] ، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم ، فأطرق الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعوده أمامه وقتاً كيما يفرخ روعه ، فلما رأى أن قد خفض عليه ، افتتح تكليمه فقال : ليسرك إقبالك ويغبطك تأميلك ، فلدينا لك من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته .

---

(١) وليد بن خيزران : هو القاضي - فيما يبدو - الذي أعان على ترجمة كتاب « هروشيوش » ، حين أهداه امبراطور القسطنطينية إلى الناصر . وقد ورد اسمه في المصادر العربية بأشكال مختلفة ، منها : خيزان وحيزون وخيرون . وفي المقتبس - ابن حيان - أحداث سنة ٣٦٠ هـ ، أن قاضي النصارى بقرطبة كان اسمه أصبغ بن نبيل .

فلما ترجم له كلامه إياه تطلّق وجه أردون ، والحطّ عن مرتبته ، فقبّل البساط وقال ما ترجمته : أنا عبد أمير المؤمنين مولاي ، المتورك على فضله ، القاصد إلى مجده ، المحكم في نفسه ورجاله، فحيث وضعني من فضله وعوضني من خدمته، رجوت أن أتقدم فيه بنيّة صادقة ونصيحة خالصة . فقال له الخليفة : أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا ، وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا إياك على أهل ملّتك مـــا يغبطك ، وتتعرف به فضل جنوحك إلينا ، واستظلالك بظل سلطاننا .

فعاد أردون إلى السجود عنـد فهمه مقالة الخليفة ، وابتهل داعياً ، وقال : إن شانجة ابن عمي تقـــدم إلى الخليفة الماضي مستجيراً به مني ، فكان من إعزازه إياه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأملهم ، وكان قصْدُه قصْدَ مضطر قد شنأته رعيته ، وأنكرت سيرته ، واختارتني لمكانه من غير سعي مني علم الله ذلك ، ولا دعاء إليه ، فخلعته وأخرجته من ملكه مضطراً مضطهداً،فتطول عليه (رحمه الله) بأن صرفه إلى ملكه ، وقوّى سلطانه ، وأعزّ نصره . ومع ذلك ، فلم يقم بفرض النعمة التي أُسديت إليه ، وقصّر في أداء المفروض عليه ، وحقه وحق مولاي أمير المؤمنين من بعــده ، وأنا قــد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة ، ومن قرارة سلطاني وموضع أحكامي ، محكّماً له في نفسي ورجالي ومعاقلي ومَن تحويه من رعيتي،فشتان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح الهمة .

فقال الخليفة : قد سمعنا قولك ، وفهمنا مغزاك ، وسوف يظهر من إقراضنا إياك على الخصوصية شأنه ، ويترادف من إحساننا إليك أضعاف ما كان من أبينا (رضي الله تعالى عنه) إلى ندّك ، وإن كان له فضل التقدم بالجنوح إلينا والقصد إلى سلطاننا ، فليس ذلك مما يؤخرك عنه ، ولا ينقصك مما أنلناك ، وسنصرفك مغبوطاً إلى بلدك، ونشد أواخيّ ملكك، ونملكك جميع من انحاش إليك من أمتك ، ونعقد لك بذلك كتاباً يكون بيدك نقرر به حد ما بينك وبين ابن عمك ، ونقبضه عن كلما يصرفه من البلاد إلى يدك، وسيترادف عليك من إحساننا فوق ما احتسبته ، والله على ما نقول وكيل .

فكرر أردون الخضوع،وأسهب في الشكر، وقام للانصراف مقهقراً لا يولي الخليفة ظهره ، وقد تكنفه الفتيان فأخرجوه إلى المجلس الغربي في السطح ، وقد علاه البَهْر وأذهله الرَّوْع ، من هول ما باشره ، وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة.

فلما أن دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خالياً منه ، انحطّ ساجداً إعظاماً له ، ثم تقدم الفتيان به إلى البهو الذي يحَوْفَيْ هذا المجلس ، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب ، وأقبل نحوه الحاجب جعفر ، فلما بصر به قام إليه ، وخنع له ، وأومأ إلى تقبيل يده ، فقبضها الحاجب عنه ، وانحنى إليه فعانقه وجلس معه، فغبطه ووعده من إنجاز عدات الخليفة له بما ضاعف سروره ، ثم أمر الحاجب جعفر ، فصبّتْ

عليه الخِلَع التي أمر له بهـــا الخليفة، وكانت دُرّاعة منسوجة بالذهب ، وبرنساً مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصّعة بالجوهر والياقوت ملأت عين الملج تجـلة ، فخرّ ساجداً وأعلن بالدعاء .

ثم دعا الحاجب أصحابه رجلاً رجلاً ، فخلع عليهم على قدر استحقاقهم ، فكمل جميع ذلك بحسب مـــا يصلح لهم ، وخرّ جميعهم خانعين شاكرين .

ثم انطلق الملك أردون وأصحابه ، وقدم لركابه في أول البهو الأوسط فرس من عتـاق خيل ، الركاب عليه سرج حلي ولجام حلي مفرغ ، وانصرف مع ابن طملس إلى قصر الرصافة مكان تضييفه ، وقـــد أعدّ له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون ، واستقرّ أصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وإرغاد المعاش .

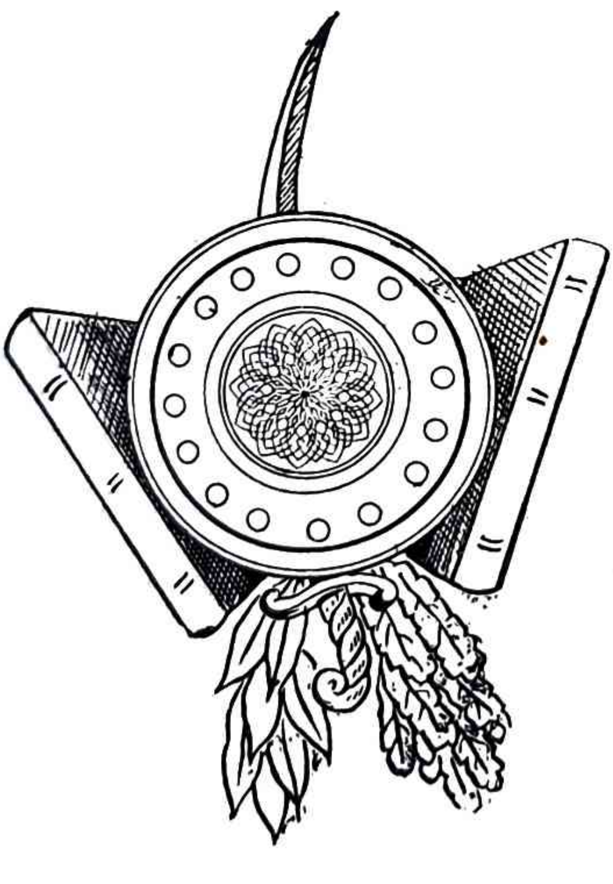
واستشعر الناس من مسرّة هذا اليوم وعزة الإسلام فيه ما أفاضوا في التبجّح به والتحدث عنه أياماً ، وكانت للخطبـــاء والشعراء بمجلس الخليفة في هذا اليوم مقامات حسان، وإنشادات لأشعار محكمة مثان ، يطول القول في اختيارها ، فمن ذلك قول عبد الملك بن سعيد المرادي من قصيدة ، حيث يقول [1] :

ملك الخليفـة آية الإقبال وسعوده موصولة بتوالي

---

(١) نفح الطيب ١ / ٣٨٨ - ٣٩٤ .

والمسلمون بعزةٍ وبرفعـةٍ والمشركون بذلّـةٍ وسَفالِ
ألقت بأيديها الأعاجم نحوه متوقعين لصولة الرئبال
فالحمـد لله المـُنيل إمامنا حظ الملوك بقدره المتعالي
هو حشر يوم الناس إلا أنهم لم يُسألوا فيه عن الأعمال
أضحى الفضاء مفعماً بجيوشه والأفق أقتم أغبر السربال
لا يهتدي الساري لليل قتامه إلا بضوء صوارم وعوالي
وكأن أجسام الكماة تسربلت مذ عريت عنه جسوم صِلال
وكأنما العقبان عقبان الفلا منقضّة لتخطف الضُّلاّل
وكأن منتصب القنا مهتزّة أشطان نازحة بعيدة جال
وكأنمـــا قُبْلُ التجافيف اكتست
نارأً توهُّجها بـــلا إشعـــال



٣ ـ القوة درب العزة

كانت جهود الأمراء الأمويين لبنات متراصة أحكم بعضها فوق بعض ، وسارت لبنات البناء الحضاري جنباً إلى جنب مع لبنات بناء القوة الذاتية ، ويمكن متابعة ذلك من خلال إلقاء لمحات سريعة على عهود الأمراء الأمويين المتتالية .

فعندما جاء هشام بن عبد الرحمن (١٣٩ – ١٨٠ ه = ٧٥٦ – ٧٩٦ م) ، كان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز . وكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكور (النواحي) فيسألون الناس عن سير عماله ، ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ولم يستعمله بعد . وفي أيامه فتحت أربونة (ناربون) الشهيرة ، واشترط على المعاهدين من أهل جيليقية من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتتحة يحملونها إلى باب قصره بقرطبة ، وبنى منه المسجد الذي قدام باب الجنان .

وقصد الأمير هشام إلى بلاد الحرب غازياً ، وقصد ألبة

والقلاع، فلقي العدو وظفر بهم، وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين ومائة (٧٩١ م) وبعث العساكر إلى جيليقية مع يوسف بن بخت ، فلقي ملكها « برمند »[١] وهزمه ، وأثخن في العدو .

وفي السنة التالية ، بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو ، فبلغ ألبة والقلاع ، فأثخن في نواحيها ، ثم بعثه في العساكر سنة سبع وسبعين ومائة إلى أربونة و« جرندة »[٢] فأثخن فيها . ووطىء أرض برطانية ، وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم ، ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبة والقلاع (سنة ٧٩٤ م) ومع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد جيليقية . فانتهى إلى « استرقة »[٣] فجمع له ملك الجلالقة ، واستمد بملك البشكنس ، ثم خام عن اللقاء ، ورجع أدراجه ، واتبعه عبد الملك ، وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى ، فالتقوا بعبد الملك وأثخنوا في البلاد ، واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعض الشيء ، ثم خرجوا سالمين ظافرين .

وفي عهد الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ = ٧٩٦ - ٨٢٢ م)

---

(١) برمند : Vermudo وأوردته المصادر العربية بأشكال مختلفة (ابن مندة وابرمندة وبرمود) .

(٢) جرندة : Gerona إلى الشمال الشرقي من برشلونة .

(٣) استرقة : « أو إشترقة » Astorga من منطقة جيليقية Galicia إلى الغرب في اتجاه الشمال من مدينة لبلة (Neibla) .

انتهج سياسة جديدة في بناء الدولة ، فكان أول من جعل للملك بأرض الأندلس أبهة ، واستمد بالمماليك حتى بلغوا خمسة آلاف ، منهم ثلاثة آلاف فارس وألفا راجل . وكان أول من جند الأجناد والمرتزقة بالأندلس،وجمع الأسلحة والعدد واستكثر من الخدم والحواشي والحشم ، وارتبط الخيول على بابه ، واتخذ المماليك ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم .

وكان « الحكم » أفحل بني أمية بالأندلس وأشدهم إقداماً ونجدة ، وكان يشبه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العباس في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء . وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس ، وكان يباشر الأمور بنفسه ، ويقرب الفقهاء والصالحين .

ومن أبرز أعماله أنه عندما علم بإقدام ملك الفرنج « لذريق ابن قارلة »[1] على حشد جيوشه لقتال المسلمين وتوجه لحصار طرسونة « أو طرطوشة » بعث ابنه عبد الرحمن ومعه قوات كبيرة (سنة ١٩٢ هـ = ٨٠٧ م) فهزمه ، ففتح الله على المسلمين ، وعاد ظافراً .

ولما كثر عيث الفرنج في الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج (سنة ١٩٦ هـ = ٨١١ م) فافتتح الثغور والحصون ، وخرب النواحي وأثخن في القتل والسبي

---

(١) لذريق (Ludovico) .

والنهب ، وعاد إلى قرطبة ظافراً .

جاء بعد ذلك عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ = ٨٢٢ - ٨٥٢ م) وكان من أخباره في الجهاد ، أنه وجه جيشاً إلى بلاد المشركين (سنة ٢٠٩ هـ = ٨٢٤ م) وهو جيش الصائفة بقيادة عبدالكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وأصيب عبدالكريم بمرض أعاقه عن قيادة الجيش ولم يلبث أن توفي فخلفه في القيادة أمية بن معاوية بن هشام فتقدم بجيشه إلى ألبة والقلاع ، فتم نهب ألبة وإحراقها ، كما تمت محاصرة عدة حصون وفتحت بعض وصالح بعضها على مال وإطلاق الأسرى من المسلمين ، وغنم الجيش أموالاً جليلة القـدر ، واستنقذ الأسرى المسلمين وسبيهم وعاد الجيش ظافراً غانماً . وتكررت مثل هذه العمليات في السنوات التالية .

وكان من أكبر الوقعات المعروفة في عهده وقعة البيضاء (سنة ٢٣٧ هـ = ٨٥١ م) وفيها قاد موسى بن موسى جيش الصائفة حتى وصل إلى بلدة « البيضاء » وهناك اصطدم بجيش كبير من غاسكونيا أو « الجاشقبين » كما يسميهم العرب ، ودارت معركة صعبة لقي المسلمون فيهـــا عناء كبيراً وبذلوا جهداً رائعاً حتى أمكن لهم الصمود ، وأصيب موسى نفسه بخمسة وثلاثين جرحاً . وفي اليوم التالي ، وعلى الرغم مما نزل بجيش المسلمين وقائدهم ، أعاد تنظيم جيشه وتحامل على نفسه وانطلق بهجوم حاسم واستطاع به أن يحرز النصر ، وهزم جيش الغاسكون هزيمة منكرة ،

وتكبد فادح الخسائر حتى فرشت الأرض بصرعاهم [١] .

وكان من أعظم أعمال الأمير عبد الرحمن الحكم قضاؤه على ثورة ماردة وتدمير المدينة الثائرة (سنة ٢١٣ - ٢٢٠ هـ = ٨٢٨ - ٨٣٥ م) فقد كانت ماردة قريبة من الشمال ، وكان ملوك فرنسا يحرضون أهلها باستمرار على الثورة والتمرد .

وقد كتب ملك فرنسا « لويس الحليم » إلى أهلها رسالة جاء فيها: « باسم ربنـــا الإله ، وباسم مخلصنا يسوع المسيح ، من لويس الامبراطور السعيد بالنعمة الإلهية إلى الأساقفة والشعب في ماردة قد اتصل بنا ما تقاسونه من العذاب من جهة الملك عبد الرحمن

---

(١) البيضاء : Albelda – وفي المقتبس – علي مكي – صفحة ١٥٦ ما يلي : « البيضاء حصن صغير شيده موسى بن موسى القسوي على بعد كيلو مترات قليلة من مدينة لوغرون Logrone وهي على مسافة قريبة من بنبلونة وهي الآن مدينة صغيرة تقع على بعد ٩١ كم إلى الشمال الغربي من تطيلية ويتردد ذكر البيضاء في الحوليات المسيحية التي تذكر أنه لم يكد موسى بن موسى يتم بناءها حتى حاصره ملك جيليقية ، واشتوريش – أردون الأول Ordone 1 فخرج موسى للقائه ودارت بين المسلمين والنصارى معركة حامية تعرف في الحوليات المسيحية باسم معركة كلافيجو ClaviJo وتقول هذه المصادر أن المسلمين أصيبوا فيها بهزيمة منكرة وأن موسى أصيب بجراح شديدة وقتل زوج ابنته غارسية . وتحدد هذه المصادر المسيحية تاريخ المعركة بسنة ٢٤٥ هـ = (٨٥٩ - ٨٦٠ م) على أن المصادر الاسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه المعركة مما يجعل الشك محيطاً بصحة الرواية المسيحية ، وقد ذكر ابن الأثير معركة البيضاء بكلمات قليلة في أحداث سنة ٢٣٧ هـ وقال انها وقعة عظيمة كان الظفر فيها للمسلمين وهي الوقعة المعروفة بوقعة البيضاء وهي مشهورة بالأندلس.

الذي لا يزال يرهقكم عسراً متبعاً في ذلك طريقة أبيه « ابولاز ـ الحكم » الذي كان يبتزّ أموالكم ، بعد أن جعل أصدقاءه أعداء وجعل الطامع عاصياً ، فاليوم يريدون أن يحرموكم حريتكم وأن يثقلوا كاهلكم بالضرائب وأن يمسوا كرامتكم ، وقد علمنا أنكم أبيتم تحمّل الإهانة ودفعتم عنكم ظلم ملوكهم ووقفتم في وجه طمعهم وغدرهم. وقد جاءنا هذا الخبر من مصادر عدة، فرأينا أن نكتب هذا الكتاب لتعزيتكم على ما أنتم فيه ، ولتحريضكم على الثبات في خطتكم هذه . ولما كان هذا الملك البربري عدواً لنا، كما هو عدو لكم، فإننا على استعداد للاشتراك معكم في قتاله، وسنرسل لكم - بعون الله تعالى - في هذا الصيف جيشاً يجتاز البيرينه ، ويعمل بإشارتكم ، فإذا زحف إليكم عبد الرحمن كان جيشنا بالمرصاد له . كما نعلمكم منذ الآن أنكم إذا ما خلعتم طاعة عبد الرحمن وأصبحتم من رعايانا ، فسنعيد لكم حريتكم الأولى دون مساس بها ، ودون مطالبتكم بأدنى مال تؤدّونه لنا ، ولكم أن تختاروا القانون الذي تريدون السير عليه، ونحن نعاملكم كأصدقاء يريدون الاشتراك في الدفاع عن سلطتنا»[1].

وقام أهل ماردة بذبح المسلمين، وقادوا ثورة استمرت سبعة أعوام . وضاق الأمير عبد الرحمن ذرعاً ، فقاد جيشاً كبيراً بنفسه ، وشدّد قبضته .

---

(١) الكامل لابن الأثير ، أحداث سنة ١١٣ هـ . تاريخ غزوات العرب، ارسلان ، وفيه أن الرسالة كتبت عام ٨٢٦ م ، والاحتمال الأكثر صحة هو أنها كتبت سنة ٨١٦ م ، وفقاً لمسيرة الأحداث عند المؤرخين العرب .

وأوردت المصادر العربية المرحلة النهائية لثورة ماردة بما يلي : « أشفى أهل ماردة على العطب ، ونظر الأمير عبدالرحمن إلى جنده وقد تعلقوا بشرفات السور وتغلبوا عليه ، وضعف أهل ماردة عن مدافعتهم ، فسمع صراخ النساء وعويل الصبيان وعجيج البكاء ، فأمر بالإمساك عنهم ، وأوقف الجند عن الاستمرار في قتالهم ، ثم دعا بوزرائه وقواده وقال لهم : قد علمنا ما كان من تغلب رجالنا على هؤلاء الظلمة لأنفسهم ، ولم يكن رفعنا ما رفعناه عنهم إلا قربى لله عز وجل فيهم ، ورأفة من قتل أولادهم وأطفالهم ومَن لا ذنب لهم ممن استكره على نفسه منهم . ونحن نرى استجلاب النصر من حيث عوّدنا الله وعرفنا من العفو والصفح ، وقد عزمت على الانتقال عنهم ، فإن أبصروا قدر يدنا في الإبقاء عليهم ومراقبة الله فيهم ، وإلا كان الله من ورائهم محيطاً وعلى الانتقام منهم قديراً ، فهو الذي أيّدنا وقهرهم ، ونصرنا وكبَتهم » [١] . فلم ينتقل من موضعه حتى وافته رسلهم بطاعتهم والإلقاء إليه بأيديهم وإخراج أصحاب الفتنة من بينهم. وكان قضاء الأمير عبد الرحمن على ثورة قرطبة من أبرز الأعمال التي ميّزت عهده [٢] .

---

(١) أخبار مجموعة ١٣٩ .

(٢) تذكر المصادر التاريخية عن ثورة قرطبة: « ذات يوم ، وبينما كان القسيس « هارفكتس » يسير في قرطبة ، تعرض له أحد المسلمين لاستشارته حول أمور زواج المسيحيات بالمسلمين، ثم تطور الحديث إلى مناقب نبي الاسلام، فكان في بعض إجابات القسيس ما ينال من مكان النبي العربي صلى الله =

تولى الأمير محمد بن عبد الرحمن بعد ذلك إمارة الأندلس (٢٣٨ - ٢٧٣ ﻫ = ٨٥٢ - ٨٨٦ م)، فبعث لأول ولايته عساكر مع موسى بن موسى صاحب تطيلة، فعاث في نواحي ألبة والقلاع، وفتح بعض حصونها ورجع. وبعث عساكر أخرى إلى نواحي برشلونة وما وراءها، فعاثوا فيها وفتحوا حصوناً من برشلونة ورجعوا. ولما استمد أهل طليطلة المخالفون (المتمردون) من أهل بلاد الأمير محمد عليه بلكي جيليقية وقشتالة والبشكنس، لقيهم الأمير محمد على وادي سليط[1]، وقد أكمن لهم فأوقع بهم، وبلغت عدة القتلى من أهل طليطلة والمشركين عشرين ألفاً.

وفي سنة (٢٤٥ ﻫ = ٨٥٩ م)، ظهرت مراكب المجوس

= عليه وسلم. وانتشر قول القسيس بين المسلمين فاعتقلوه وذهبوا به إلى قاضي قرطبة، فلم ينكر أقواله، وقذف الإهانات والشتائم، فأصدر قاضي قرطبة حكمه بإعدامه، فأعدم مع عدد من أنصاره، أمثال « يولوجيوس وألفارو »، ومن النساء فلورا Flora، نظراً لما كانوا يقومون به من الدعاية المضادة للمسلمين وإثارة الحماسة لقتالهم ».

وكان لهذا الحدث دور كبير في إشعال نار الحقد في صدور المتعصبين الذين انطلقوا يصورون الحادث « بمأساة إنسانية ». وتطور الوضع إلى ما يهدد بالانفجار، وخشي قسس الأندلس فقد الحرية الدينية التي ضمنتها لهم الدولة الاسلامية، فأسرعوا إلى عقد اجتماع عام (٢٣٦ ﻫ = ٨٥٠ م)، قرروا فيه منع شتم النبي العربي « وأن القذف بنبي الاسلام عمداً، حباً بالقتل والشهادة، هو مخالف لروح الإنجيل ».

(١) وادي سليط Auzalete وهو نهير يصب في نهر التاجة جنوبي طليطلة.

« الاردمانيين أو النورمان » وعاثوا في الأندلس ، فلقيهم الامير محمد ، فقاتلوهم وغنموا منهم مركبين ، واستشهد جماعة من المسلمين.

وفي سنة (٢٤٧ ﻫ = ٨٦١ م) ، أغزى محمـــد إلى نواحي بنبلونة ، وصاحبها حينئذٍ «غرسية بن ونقة» [١] ، وكان يظاهر « أردون بن أذفنش » ، فعاث في نواحي بنبلونة ، ورجع وقد دوّخها وفتح كثيراً من حصونها ، وأسر فرتون ابن صاحبها ، فبقي أسيراً بقرطبة عشرين سنة . وفي عهد الأمير محمـد عادت ماردة إلى التمرّد ، فتمّ تدميرها [٢] ، كما عاد النصارى في قرطبة للتمرّد ، فتمّ قمع ثورتهم [٣] .

---

(١) غرسية Garcia ابن ونقة Inigo وحليفه أردون Ordano .

(٢) وفي تدمير ماردة ، قال شاعر عربي :

ويل لماردة التي مردت — وتكبرت عن عدوة النهر
كانت ترى لهم بها زهر — فخلت من الزهرات كالقفر
فالويل ثم الويح حين غزا — بجميعهم من صاحب الأمر

(نفح الطيب ١ / ٣٥١)

وفي مدح معركة الأمير محمد بوادي سليط ، قال عباس بن مرداس قصيدة منها :

بكى جبلا وادي سليط فأعولا — على النفر العبدان والعصبة الغلف
يقول ابن يوليس لموسى وقد أتى — أرى الموت قدامي وتحتي ومن خلفي
قتلنـــا لهم ألفاً وألفاً ومثلها — وألفاً وألفاً بعد ألف إلى ألف
سوى من طواه النهر في مسلحبه — فأغرق فيه أو تدأدأ من جرف

(ابن عذارى ٢ / ١٦٦)

(٣) في عهـــد الأمير محمد ، تم القضاء مرة أخرى على ثورة النصارى =

يكن بعد ذلك تجاوز عهد الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ — ٢٧٥ هـ = ٨٨٦ — ٨٨٨ م) والأمير عبدالله بن محمد (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ = ٨٨٨ — ٩١٢ م) للوصول إلى عهد عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ = ٩١٢ — ٩٦١م) وعهد الحكم بن عبدالرحمن « المستنصر » (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ = ٩٦١ — ٩٧٦ م) ، حيث بلغت الأندلس في عهدهم عصر القوة .

ففي عهد الناصر ، استفحل ملك بني أمية ، إذ كان الناصر كثير الجهاد بنفسه والغزو إلى دار الحرب. ومن أخباره أنه غزا سمورة ، دار الجلالقة ، في مائة ألف أو يزيدون . ومُنح الظفر على الثوار واستنزلهم من معاقلهم . وكان له في جهاد العدو اليد البيضاء ، فمن غزواته أنه غزا (سنة ٣٠٨ هـ = ٩٢٠ م) إلى جيليقية وملكها أردون بن أذفونش ، فاستنجد بالبشكنس والفرنج ، فهزمهم الناصر ، ووطىء بلادهم ، ودوّخ أرضهم ، وفتح معاقلهم وخرّب حصونهم . وصار الناصر يردد البعوث والصوائف إلى الجهاد ، وبعث جيوشه إلى المغرب فملك سبتة وفاساً وغيرهما من بلاد المغرب .

وعندما توفي الناصر ، طمع الجلالقة في الثغور ، فغزا الحكم

= المتعصبين بقرطبة ، وحوكم القس « ايلوج » ، المحرض الأول على الثورة ، وقضي بإعدامه ، ونفذ الحكم ، كما أعدمت صاحبته ومعاونته « ليوكريسيا » في آذار (مارس) سنة ٨٥٩ م .

لمطالعة المزيد عن تحريض النصارى ، انظر :
Histoire des Muslmans de L'Espagne, Paris, 1932 – V.I.P. 355.

المستنصر بنفسه واقتحم بلد فردیناند ، فنـازل شنت اشتيبين وفتحها عنوة واستباحها وقفل، فبادروا إلى عقد الصلح معه... وعظمت فتوح الحكم وقواد الثغور في كل ناحية، وكان من أعظمها فتح قلهرة من بلاد البشكنس ، ثم فتح قطوبية (قطربية) .

كانت حياة أمراء الأمويين بالأندلس ، متشابهة في أيامهـا ، جهاد مستمر في سبيل الله، وعمل دؤوب لعزة الإسلام والمسلمين. وكانت دولة بني أمية بالأندلس نموذجاً لبناء الدولة العصرية التي يرتبط فيها البناء الحضاري ببناء القوة الذاتية .



الفصل الثالث

صقر قريش وفن الحرب

١ - السياسة الاستراتيجية لصقر قريش
٢ - صقر قريش وفن القيادة
٣ - في مبادىء الحرب


Khâled

صقر قريش وفن الحرب

«والذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا» .

(سورة العنكبوت ، الآية ٦٩)

ليس من الصعب أو العسير فهم العوامل التي ساعدت الأمير عبد الرحمن الداخل في إحراز ما حققه من انتصارات ، وليس من المتعذر إدراك الأسس التي عمل بها الأمير عبدالرحمن الداخل حتى وصل إلى ما وصل إليه ، ولكن هل من السهل على أي إنسان إلزام نفسه بمثل ما ألزم الأمير عبد الرحمن الداخل نفسه به ، حتى وصل إلى هدفه العظيم ؟

قد يقال بأن الأمير عبد الرحمن اقتحم الأندلس التي تمّ فتحها في زمن الأمويين، فكانت العصبة الأموية فيها قوية لدرجة كافية ، بحيث استطاع الداخل أن ينطلق من قاعدة صلبة . وقد يقال إن الوضع المتدهور في الأندلس، والتمزق الداخلي بين

مراكز القوى ، قد ساعد الداخل في تحقيق أهدافه . وقد يقال إن ما أقدم عليه الأمير عبدالرحمن لم يكن إلا نتيجة لِما تعرّض له الأمويون، بحيث كان الداخل مدفوعاً لاقتحام أهوال لا خيار له في بديل عنها.كل ذلك، ومقولات لا نهاية لها يمكن افتراضها، ولكنها كلها لا تصمد أمام الرد الساطع، وهو : لقد تعرّض بنو أمية كلهم لموقف واحد،فلماذا لم يخرج من بينهم غير عبدالرحمن الداخل ؟

لقـــد كان الأمير عبد الرحمن الداخل هو قدر الأندلس ، وكانت الأندلس هي قدر عبد الرحمن الداخل . لم تكن القوة اليمانية التي ناصرته هي أقوى مراكز القوى الأندلسية،ولا كانت القوى التي تجمعت له كافية لتثبيت بنيان دولة قوية . وهنا تكمن عبقرية الأمير عبد الرحمن الداخل، الذي أفاد من مراكز القوى بقدر ما تتطلبه كل مرحلة من مراحل بناء الدولة، ثم ضم مراكز القوى كلها تحت جناحه ، ومضى بها بتصميم لا نظير له وكفاءة لا مثيل لها ، وشجاعة لا يمكن وصفها ، فكانت حياته صراعاً دائماً وجهاداً مستمراً ضد أعداء الداخل والخارج . وكان أعداء الداخل أشد خطراً من أعداء الخارج ، وكان خطر الخارج غير منفصل عن تهديد الداخل ، فكانت الموازنة صعبة ، وكانت الخيارات عسيرة .

غير أن الأمير عبـــد الرحمن عرف كيف يرسم سياسته الاستراتيجية وكيف ينفذها في إطار الظروف المحيطة بـه ،

مستخدماً من القوى والوسائط ما يتناسب مع تلك الظروف ، وبذلك أمكن له الانتقال من نصر إلى نصر ، ومن مرحلة إلى مرحلة ، دونما زلل أو خطأ ، فكان في ذلك انتصاره الكبير .

ولم تكن أهمية انتصارات الأمير عبد الرحمن الداخل – في كل الأحوال – تعبيراً عن مجد فردي، فقد حقق عدد كبير من قادة التاريخ انتصارات رائعة ، إلا أنها لم تترك من الأثر ما يزيد عن أسطر قليلة في صفحات التاريخ . وهنا تلتحم انتصارات الأمير عبد الرحمن باسم « العائلة الأموية» التي تميّزت بصنع أمجاد العرب المسلمين، وهنا أيضاً تلتحم أمجاد الأمويين بعقيدة الإسلام وجهاد المسلمين. وهكذا، فلولا الإسلام ما كان بنو أمية، ولولا بنو أمية ما كان الأمير عبد الرحمن ، ولا كانت أمجاد الأندلس على الرغم من كل الانتصارات .

لقد كان الأمير عبد الرحمن الداخل نسيجاً وحده في عالم العرب المسلمين ، فيه شجاعة جده الأعلى مؤسس دولة الأمويين في الشام « معاوية بن أبي سفيان » ، وفيه عزم نظيره في عصره، مؤسس الدولة العباسية « أبو جعفر المنصور » ، ولكنه ينفرد عنهما ، ويتفوق عليهما في عدد من الخصائص والفضائل . وكان أكبر ما أبرز تفوّقه هو إقامته للدولة الأموية في الأندلس، والتي حفظت عز المسلمين وأمجادهم على امتداد قرون متتالية .

ومن المحتمل هنا القول: إن الإسلام قد دفع إلى الدنيا بمجموعة من القادة لا نظير لهم في التاريخ ، وإنه لو لم يظهر الداخل

لكان هناك أشباه للداخل وأمثال. وقد تصعب مناقشة أحداث التاريخ من منطلق الافتراضات « لو » و« إذا » ، إذ إن أحداث التاريخ لا تقبل النقض والإبرام . وتبقى الحقيقـــة التي لا تقبل النقض والإبرام ، وهي أن الأمير عبد الرحمن الداخل هو رجل الدنيا وواحدها ، وهو الذي لم يعوّل في الدنيا على أحد ، فكان له من تصميمه وعزمه أمضى سلاح ، وكان له من عقله وقلبه أقوى عدة ، فكان منارة خالدة في طليعة منارات قادة العرب المسلمين .



١ ـ السياسة الاستراتيجية لصقر قريش

لقد كانت دمشق هي قاعدة العرب المسلمين ، منها انطلقت جيوشهم ففتحت المشرق والمغرب « ولله المشرق والمغرب »، ثم عدت عوادي الليالي على دمشق،واهتزت قاعدة العرب المسلمين، وانتقل دورها إلى شقيقتها بغداد ، وخرج عبد الرحمن طريداً يحاول العثور علىقاعدة تكون خلفاً لدمشق،« **فوجد في قرطبة دمشق الأندلس** » وانطلق من قرطبة إلى ما يحيط بها من مدن وأقاليم ، وأمضى حياته في دعم هذه القاعدة وتقويتها وتحصينها ولم تكن قوة قاعدة الأندلس مرتبطة فقط بتحصينات قرطبة وأسوارها وقلاعها ، وإنما كانت قوتها بوفرة عتادها و كثرة عدد قواتها وبتلاحم هذه القوات ووحدة قيادتها ووحدة هدفها .

وكانت قوة قاعدة الأندلس كلها ، بتحقيق العدالة فيها . ومن هنا تظهر أهمية اعتماد الأمير عبد الرحمن على طبقة العلماء والفقهاء ، ووضع الأسس لبناء الدولة على أساس التطبيق الحازم لأسس الدين الإسلامي والالتزام بقواعد الشريعة الاسلامية

وبذلك أمكن تحقيق قوة البناء مادياً ومعنوياً ، وأمكن بذلك أيضاً القضاء على النوازع المختلفة وحشد القدرات كلها تحت راية الجهاد في سبيل الله .

وهنا تظهر مشكلة طالما أثارت المؤرخين وهي الاعتماد على « الصقالبة والموالي » (١) ذلك أن الأمويين قد عرفوا في التاريخ بتعصبهم الشديد للعرب المسلمين ، وجاء عبد الرحمن الداخل ، فبدل قاعدة أسلافه بزيادة اعتماده على الصقالبة – غير العرب – ونسبوا ذلك إلى كثرة ثورات العرب ، وفي الواقع فإن دولة أمية

---

(١) الصقالبة : كانت كلمة الصقـــالبة في الأندلس تعني جميع الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلبية ، السلافية ، الحقيقية ، ثم أصبحت تطلق على جميع الأجانب الذين يضمهم القصر من جلالقة وألمان وفرنسيين ولومبارديين وايطاليين من جنوة وصقلية ، وكان معظمهم يحملون صغاراً بواسطة خوارج البحر (القرصان) وتجار الرقيق ، وكانوا يختارون من الجنسين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ويلقنون مبادىء الاسلام ، وقد نبـغ بعضهم في النثر والنظم وألفوا الكتب والقصائد ، ثم تعاظم نفوذ الصقالبة في عهد الناصر لسيطرتهم على شؤون الادارة والحكم والقصر ، وصارت إليهم المناصب الكبرى في الدولة والجيش ، وتزايدت أعدادهم ، وامتلكوا الضياع ، وأصبح لديهم أموال ضخمة ، وكان الناصر يدعم سلطانهم ونفوذهم ، فكان منهم قائد الجيش « نجدة الصقلبي » وصاحب الخيل – أو قـائد الفرسان « أفلح » كما كان منهم قائد الشرطة « ودري » بالاضافة إلى « ياسر وتمام » صاحبا النظر في الشؤون الخاصة. (البيان المغرب ٢ / ١٢٣ ، ونفح الطيب ١ / ٣٦٣ ، وأخبار مجموعة ١٥٥ ، ودولة الاسلام في الأندلس– عنان – ١٠٥–١٠٦ وتاريخ المسلمين في اسبانيا – دوزي – باريس ١٩٣٢ مجلد ٢ ص ١٥٣ « فرنسي ») .

في المشرق جابهت كثيراً من الثورات وأعمال التمرد، غير أن أمراء بني أمية لم يحاولوا أبداً الاعتماد على غير العنصر العربي، ولهذا فمن الصعب إرجاع هـذا التبديل لأعمال التمرد أو الثورات وحدها بل إن هناك عاملان ظهرا في الأندلس وهما الحاجة إلى الجيش الدائم لمجابهة الأخطار الخارجية والداخلية، ثم الحاجة لدعم العنصر العربي الذي استنزفته الحروب، علاوة على الحاجة لعناصر أكثر ولاء للحكم ولا تعرف لها قيادات غير الأمراء الأمويين .

وتتأكد هـذه الحقيقة باعتماد بني العباس على عناصر غير عربية بسبب وفرة الأعداد التي دخلت في الإسلام من غير العرب فكان من غير المقبول عدم السماح لها بممارسة دورها في بناء الدولة الاسلامية . وإن اتساع الفتوحات قـد زاد على حجم القدرة العربية (البشرية) وكان ذلك في جملة الأسباب التي دفعت الداخل إلى تبديل الأساس في بناء الدولة، غير أن الأمر الواضح والذي لا يقبل المناقشة أو الجدل هو أن العنصر العربي بقي هو المهيمن في دولة بني أمية، سواء في الشام أو في الأندلس وذلك بفضل قوة الأمراء الأمويين وكفاءتهم العالية في إدارة الدولة، تماماً على نحو ما كان عليه موقف الدولة العباسية في بداية عهدها « خلال المائتي سنة الأولى تقريباً من العصر العباسي » .

مهما كان عليه الموقف، فقد استطاع الأمير عبد الرحمن بناء قاعدة قوية وصلبة بدأت من قرطبة وانتهت بالأندلس كلهـا،

باعتراف المؤرخين جميعهم ، وبتأييد الشواهد التاريخية كلها .
هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن بناء هذه القاعدة بالاعتماد على عناصر مختلفة من عرب وبربر وصقالبة وسواهم إنما يبرهن على كفاءة الأمير عبد الرحمن العالية . صحيح أن الإسلام قد ساوى بين المسلمين غير أن توحيد جهد المسلمين لم يكن عملاً سهلاً ، لا سيما بالنسبة لمراكز القوى التي دخلت حديثاً في الإسلام ، أو تلك التي لم تتمكن من التحرر نهائياً من عصبياتها الجاهلية ، والتي ساعد انعزالهـــا بالأندلس وخوفها من الضياع على زيادة حدة تمسكها بولاءاتها لقياداتها – العصبية – ولا ريب أن بعث روح الجهاد في سبيل الله قد ساعد كثيراً على صهر النوازع الفردية وعلى توحيد جهد المسلمين .

وكان لا بد لبناء القـاعدة القوية والصلبة من تبني سياسة استراتيجية طالما حقق العرب المسلمون نجاحاً رائعاً فيها وهي « **بناء المجتمع الاسلامي الجديد** » فقد جاء الأمير عبد الرحمن إلى الأندلس فوجدها مجموعة من المجتمعات المتنافرة ، تماماً على نحو ما كانت عليه زمن الفتح ،وكان لابد من دمج هذه المجتمعات في المجتمع الجديد ، وكانت هناك مجموعة من العوامل التي تفرض ذاتها ، مثل الوضع الخاص للأندلس كشبه جزيرة منعزلة نسبياً ، ثم اقترابها من بلاد الغال – فرنسا – ووجود مجتمع مميز ، فكان لا بد من التكيف نسبياً مع مجموعـة الظواهر المميزة للمجتمع الأندلسي مع المحافظة على الأصالة العربية والمبادىء الإسلامية ،

فنشأ عن ذلك كله مجتمع جديد مميز بنموذج حياته وبطرائق تفكيره وبأخذه بكل المعطيات الخاصة التي أخذت ظواهرها حتى في أسلوب اللغة ، وقد حفظت المراجع الأندلسية مجموعة لا نهاية لها من الشواهد التي تؤكد الطابع الخاص للمجتمع الأندلسي الإسلامي الذي لا زالت بعض أوابده خالدة في فن العمارة والأدب والعلم والفن .

وكانت عملية بنـاء المجتمع الإسلامي الجديد مرتبطة أيضاً باستراتيجية ثالثة هي « وضوح الهـــدف » فقد خرج الأمير عبد الرحمن من بلاد الشام وهدفه إقامة دولة تعيد لبني أمية ملكهم المفقود وتجدد لهم عزهم الضائع ومجدهم الغارب . وبقي هذا الهدف ماثلاً أمام الأمير عبد الرحمن طوال حياته المديدة ، لم يفارقه يوماً، ولم يغب عن ناظره لحظة واحدة ، فكان كل عمل من أعماله إنما يسير لخدمة هذا الهدف .

ولم يكن قضاء الأمير عبدالرحمن على مراكز القوى وإضعافها وإبدال الولاء القبلي، ذلك، بالولاء للدولة ، ثم الانصراف للبناء الحضاري المستمر، ونقل تراث المشرق إلى المغرب، إنما هو نتيجة لوضوح الهدف ، ولعل من وضوح الهدف ربط دولة الأمويين بالأندلس بالخلافة العباسية على الرغم مما كان بينهما من عداء ، وعلى الرغم ممن كان بينهما من منافسة، وقد ظهر ذلك في البداية باستمرار الدعاء للخليفة العباسي ، ثم بعدم تسمية الأمير عبد الرحمن لنفسه بالخليفة ، والاكتفاء بلقب أمير المؤمنين .

ولا ريب أن إدراك الأمير عبد الرحمن لوحدة الخلافة الإسلامية في كل أقطار العالم الإسلامي ، والتزامه بالشريعة الإسلامية كانا هما الدافع الذي حمل الأمير عبد الرحمن على ترك اسم الخلافة للعباسيين الذين أصبحوا هم القوة المهيمنة على العالم الإسلامي . فهل كان الأمير عبد الرحمن يأمل في إعادة توحيد القيادة الدينية والسياسية للعالم الإسلامي ؟

لقد بقي الأمل الكبير للأمير عبد الرحمن هو العودة إلى الشام وإقامة الحكم الأموي فيها ، ولا يمكن تفسير ذلك إلا بالرغبة في العمل لإعادة توحيد العالم الإسلامي ، ولم يكن أمراء بني أمية ، لا في الشام من قبل ولا في الأندلس من بعد، بحاجة للمزيد من المجد والسلطان ، وكانت لديهم متاعبهم المتعاظمة مع كل جهد إضافي للمحافظة على وحدة العالم الإسلامي . غير أن الالتزام بمبدأ وحدة العالم الإسلامي كانت تفرض عليهم تحمل كل الأعباء لتحقيق الهدف العظيم الذي عرف فيه العرب المسلمون أسباب القوة التي ساعدتهم على حمل رسالتهم إلى أرجاء الدنيا وتعريف العالم بها . ويظهر ذلك الالتزام العميق لأمراء بني أمية بحمل رسالة الإسلام ، وبذل كل جهد مستطاع في هذا السبيل . ولقد سار الأمير عبد الرحمن على درب الإسلام وهدف نصره ، فأيده الله بنصره .

وكان حرص الامير عبد الرحمن الداخل على العنصر العربي – دعامة الاسلام – هو وسيلة لتحقيق أهدافه في مجال

السياسة — الاستراتيجية . وقد أظهر الأمير عبد الرحمن ذلك منذ البداية ، إذ لم يكد يبصر ببواكير النصر في معركة المصارة « قرطبة » حتى طلب إلى أنصاره اليمانية رفع السيف عن خصومهم ، بقوله الخالد : « لا تستأصلوا شأفة أعداء ترجون صداقتهم واستبقوهم لاشد عداوة منهم » .

وقد استمر الأمير عبد الرحمن بالعمل بهذه السياسة الاستراتيجية طوال حياته ، وكلما وجد فرصة لذلك ، وهذا ما يفسر عفوه عن المتمردين كلما أذعنوا له ، والتجاوز عن أعمالهم ، غير أن تطبيق هذا المبدأ بقي محكوماً بمتطلبات بناء الدولة ، شدة من غير بطش ولين من غير ضعف ، أو كما يقول المثل العامي : « لا يموت الذئب ولا يفنى الغنم » ، أو كما قال معاوية بن أبي سفيان : « لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت إن هم شدوها أرخيتها وإن هم أرخوها جذبتها أو شددتها » وهكذا جاء الحفيد ليسير على سياسة الجد وليطبق مبادئه في بناء الدولة بكفاءة عالية واضعاً باعتباره كل المتحولات الجديدة .

ولقد بقيت شعرة معاوية هي الرباط القوي الذي ربط بين الأمير عبد الرحمن وبين مراكز القوى في أندلس المسلمين . ويظهر ذلك مدى الجهد المبذول لتقنين العنف في حروب الأمير عبد الرحمن ، حيث كان الهدف هو ترويض مراكز القوى وإخضاعها لا تدميرها وإبادتها . وقد نجحت هذه السياسة الحازمة إلى أبعد الحدود . إذ أنها لم تلبث أن حولت الأعداء إلى حلفاء والخصوم

إلى أصدقاء، ولم يخرج على ذلك إلا أولئك الطامعين بمنافسة الأمير عبد الرحمن في سلطته، وكان نصيب هؤلاء من الأمير عبد الرحمن البطش بدون رحمة أو شفقة .

ومن هنا يظهر أيضاً أن اصطناع الصقالبة، وتكوين جيش نظامي من العناصر المختلفة، لم يكن بديلاً عن العرب المسلمين، وإنما كان لدعمهم وزيادة قوتهم في مجابهة أعداء الخارج، الذين كان تهديدهم قائماً ومستمراً، والذين لم يكن باستطاعة الأمير عبد الرحمن تجاهل خطرهم أو الإنقاص من درجة الاستعداد لمجابهتهم، ذلك أنه إذا ما كان خطر الداخل يتهدد حكم الأمير عبد الرحمن، فإن الخطر الخارجي كان يتهدد المسلمين جميعاً، ومن البدهي بعد ذلك أن يحرص الأمير على حشد القوى والوسائط المتنافرة ضمن إطار وحدة الهدف المشترك ضد أعداء الدين .

استخدم الأمير عبد الرحمن الداخل مجموعة من الاستراتيجيات التكميلية، وأولها «**استراتيجية الهجوم غير المباشر**»، ويظهر ذلك في أسلوب القضاء على ثورة العلاء اليحصبي وإرسال رؤوس الثوار إلى القيروان ومكة المكرمة لإقناع العباسيين بعقم محاولاتهم، وحملهم على التخلي عن الهجوم المباشر . وكذلك الأمر بالنسبة للتعامل مع الفرنج ومع زعماء حركات التمرد، حيث كانت انتصارات الأمير عبد الرحمن تعتمد على الهيبة المعنوية وعلى القناعة، أكثر مما تعتمد على وسيلة الصدام المباشر، ولو أن وسيلة الصدام المباشر لم تكن بعيدة عن ممارسة دورها

في تكوين تلك القناعات. وإذا ما تمّ الانتقال من مستوى السياسة الاستراتيجية إلى مستوى العمليات، فسيظهر تطبيق استراتيجية الهجوم غير المباشر على شكل أساليب عزل وتطويق لمراكز القوى وحرمانها من إمكانات الدعم الخارجي، وذلك قبل الدخول معها بصدام مباشر.

ولقد كان هدف الأمير عبدالرحمن الدائم القضاء على الأعداء بأقل جهد ممكن، وهذا ما يفسر استمرار ثورة «شقنا بن عبد الواحد» لمدة عشر سنوات، إذ كان على الأمير عبدالرحمن الداخل مجابهة عدد من أعمال التمرد والثورات في وقت واحد، علاوة على ضرورة الاحتفاظ بالقوة لمجابهة أعداء الخارج. ولهذا فقد تعامل الأمير عبد الرحمن مع هذه الثورة بصورة مزيجة من الهجوم المباشر والتقرب غير المباشر، إلى أن أمكن في النهاية القضاء على هذه الثورة.

والأمر مماثل أيضاً بالنسبة لأسلوب الداخل في التعامل مع الأعداء في الداخل والخارج، حيث كان يحرص على تطويق الخطر بأسرع ما يمكن وحصره، ثم التعامل معه بهدوء وبحسب ما يمثله التهديد من درجة الخطر على عملية بناء الدولة. وفي الحالات كلها، كانت حروب عبد الرحمن حروب دهاء وعقل، وحروب حذق ومهارة، تضمن باستمرار تحقيق التوازن بين درجة الخطر وبين الأسلوب الناجح للقضاء عليه.

وطبّق الأمير عبد الرحمن بكفاءة عالية «استراتيجية

الحروب التشتيتية ». وتُظهر سيرةُ أعماله القيادية أنه كثيراً ما كان يجابه بمجموعة من الأخطار ومن أعمال التمرد في وقت واحد وفي أماكن متباعدة ، فكان يسرع لتوجيه مجموعات قتـــالية واجبها عزل المقاومات المعادية بعضها عن بعض ، وعدم السماح لها بتنسيق التعـاون فيما بينها . وهكذا كان الأمير عبد الرحمن يستفيد من الميزة المتوافرة له في « وحدة القيادة » ويحرم خصومه من هـــذه الميزة ، فكانت النتيجة الطبيعية توافر الفرصة أمام عبد الرحمن للقضاء على ثورة بعـد ثورة ، ومجابهة معركة بعـد معركة ، وتحريك القوات في إطار من حرية العمل المطلقة مع حرمان الأعداء من حرية العمل ، ممـا كان يضمن توافر الفرص أمام تحقيق النصر الحاسم لقوات الداخل .

ولا حاجة للقول إن الأمير عبد الرحمن الداخل قـد أدرك أهمية هذه السياسة الاستراتيجية منذ كان بالشام ، فقد عرف عن الأمراء الأمويين قدرتهم العالية وكفاءتهم النادرة في مجابهة أخطار كثيرة تبرز في وقت واحد . **وهنا تمتزج في شخصية الأمير الداخل الخبرات المتوارثة والشخصية الفريدة ، لتسهم معاً في صنع الحدث التاريخي .**

وقد امتزجت استراتيجية الحروب التشتيتية في كثير من الأحيان « **باستراتيجية الهجمات الوقائية** » ، إذ من الواضح في سيرة الأمير عبد الرحمن أنه كان يبادر إلى مهاجمة أعدائه بمجرد أن تتوافر له المعلومات عن احتمال تحرُّك هؤلاء الأعداء ، ليس

ذلك فحسب ، بل إنه كان يستبق الأحداث فيضع الخصوم المحتملين تحت قبضته (ولم يكن احتفاظه بالرهائن من أبناء الذين يحتمل لهم التمرد ، سوى نوع من الهجوم الوقـــائي) ، كما أن تنظيمه للثغور ، وترتيب الصوائف ، لم يكن إلا إعادة لأسلوب الأمويين في الشرق (بلاد الشام)، وتطبيقاً «لاستراتيجية الهجمات الوقائية) .

وتظهر متابعة هذه الاستراتيجيات كلها ، أنها تشكل القاسم المشترك عند قادة العرب المسلمين جميعهم . وعلى هـــذا ، فليس الأمير عبد الرحمن الداخل أكثر من قـائد عربي مسلم استوعب الأسس والمبادىء التي جاءت بها العقيدة الإسلامية، والتي أنضجتها التجارب القتالية لقادة العرب المسلمين طوال نيف ومائة سنة ، حيث تشكل من هذه التجارب حصالة ضخمة ، إلا أن ذلك لا ينتقص من كفاءة الأمير عبدالرحمن الداخل في شيء، فالتجارب والخبرات ، هي الثروة المشتركة لكل طامح ولكل قائد يعمل على استثمارها والإفادة منها .

وهكذا لم تكن وحدة القيادة وتكوين القاعدة القوية والصلبة وكذلك بناء المجتمع الجديد ووضوح الهدف والحرص على العنصر العربي دعامة الاسلام، واستراتيجية الهجوم غير المباشر والحرب التشتيتية والهجمات الوقائيـة ، غير استراتيجيات متكاملة أمسك الأمير عبد الرحمن بخيوطها في قبضته القوية ، واخذ في تطبيقها وتطويرها عند تعامله مع كل حالة من الحالات

بما تتطلبه تلك الحالات المختلفة في ظروفها ومعطياتها . وذلك مما يبرهن بوضوح على ما تميّزت به شخصية القائد عبد الرحمن الداخل من كفاءة قيادية نادرة وفريدة ، ويصبح النصر محصلة طبيعية للقائد الذي لم تُهزَم له راية، منذ وطئت أقدامه الأندلس وحتى مضى إلى ربه .

لقد اقتحم الأمير عبد الرحمن الأندلس ، وهو شاب في مقتبل العمر، وفي الأندلس قادة ممن صهرتهم التجارب وزادتهم قوة وصلابة على قسوتهم وصلابتهم ، فجعلت منهم قادة على درجة رائعة من الكفاء ، ودليل ذلك تلك المناقشات التي حدثت قبل وصول عبد الرحمن إلى الأندلس وفي طريقه لبناء الدولة ، وعلى الرغم من ذلك كله، فقد برهن الداخل على تفوّقه القيادي المطلق.

لقد استصغر القوم شأن هـذا الشاب الذي اقتحم عليهم جزيرتهم، وذهبت بهم الظنون إلى أنه سيكون تحت رحمتهم وفي قبضتهم عندما يستقر له الأمر، غير أنه برهن على أنه ليس بذلك الشاب الغض الذي يمكن ترويضه أو إخضاعه ، فلانَ له قساةُ الرجال ، وخضع له كبار القادة ، وابتعد بنفسه كلُّ مَن ظنّ في نفسه القدرة على منازعة الأمير الداخل نفوذه وسلطانه. واعترف الجميع – الأصدقاء والأعداء – بقدرة هذا الأمير الطريد الذي مكّنت له كفاءته من إقامة دولة كانت أبداً رمزاً لعزة المسلمين ونموذجاً لأمجادهم .

٢ ـ صقر قريش وفن القيادة

كان من أبرز الفضائل القيادية عند صقر قريش ، وفقاً لما تظهرها سيرة حياته ، اهتمامه بالتنظيم الاداري ، والشجاعة في الخطر والعنف في القضاء على الأعداء والطامعين، والتحريض على القتال ، واتخاذ القرارات الصحيحة ثم حمايته لأتباعه المرؤوسين .

ويظهر اهتمام صقر قريش بالتنظيم الإداري من خلال إرساء قواعد الدولة على أسس ثابتة ، سواء في إدارة الأقاليم ، أو في جبايات الأمصار ، أو في تنظيم القوات ، أو في توزيع الموازنة وتنظيم أوجه الصرف ، وقد أخذت هذه التنظيمات كلها شكلاً إبداعياً ومتطوراً ، أمكن له الاستجابة لمتطلبات بناء الدولة من جهة ، وأمكن له تلبية احتمالات المستقبل من جهة أخرى ، بحيث لم يجد أمراء الأمويين بعد ذلك ضرورة لتغيير الأسس التي وضعها الأمير عبد الرحمن الداخل أو تبديلها .

وفي مجال عمل القوات المقاتلة ، لم تظهر في سيرة صقر قريش القيادية وأثناء إدارته للحرب ، أية مشكلة تتعلق بقصور القوات

أو نقص إمداداتها أو ضعف قدرتها الحركية ، مما يؤكد اهتمام صقر قريش بالتأمين الاداري للقوات . ولا غرو في ذلك ، فقد خصص الأمير عبد الرحمن ثلث موازنته (جبايات الأمصار) لبناء القوات المسلحة البرية والبحرية ، وهي نسبة عالية لم تبلغها - على ما هو معروف - دولة في التاريخ القديم والحديث .

ولقد كان الأمير عبدالرحمن يعرف ثقل التحديات المفروضة عليه ، بقدر معرفته أيضاً لأهمية القدرة الذاتية . ومن هنا جاء اهتمامه ببناء القدرة البحرية وتكوين الجيش النظامي العامل (الصقالبة) الذين كانوا يعيشون دائماً في حالة الحرب والاستعداد لها ، وبذلك أمكن مجابهة الصراعات المفروضة بحزم وبسرعة ، مما ضمن أفضل الظروف للنجاح .

وفي مجال « الشجاعة في مواجهة الخطر » يمكن اعتبار حياة صقر قريش كلها نموذجاً لهذه الفضيلة ، فقد بدأت رحلته من الفرات بنموذج أعلى للشجاعة في مواجهة الخطر ، يوم أسرعت قوات العباسيين لمطاردته ، فما فقد صوابه ولا اهتزت أعصابه ، ومضى يجتاز النهر سباحة بعزم ثابت وتصميم أكيد . وهو إذ يدرك نوايا أعدائه ، فإنه لا ينخدع بوعودهم ، ويحذر أخاه الذي تضعف إرادته فيعود ليلقى مصرعه على مرأى عبدالرحمن وتحت بصره . وهو يحزن لمصرع أخيه ، ولكنه يحمل معه جراحه ويمضي بتصميم أكبر نحو أفريقية .

وعند وصوله إلى الأندلس ، يصل إليه ما يقوله المقاتلون

وهو يمتطي جواداً من كرام الخيل ، عن احتمال هروبه إذا ما التحمت القوى وحمي وطيس المعركة ،فيعمل على استبدال جواده ببغل يخوض عليه معركته ويجـابه أخطار المعركة ويعمل على إدارتها بشجاعة خارقة . ثم هو لا يغترّ بما أحرزه من نصر ، ولا يستكين لما وصل إليه من قوة ،فيندفع بشجاعة لمجابهة المقاومات والثورات ، يقود الجيش بنفسه ويقف دائماً في مواقع الخطر .

ولم تكن شجاعة صقر قريش – في كل الأحوال – نوعاً من التهوُّر الخطر ، كما لم تكن نوعاً من الإحجام في بعض الأحيان ، إذ من الممكن اعتبار فرار عبدالرحمن في الفرات، نوعاً من الجبن عن مواجهة الواقع ، كما يمكن اعتبار اختفـاء عبد الرحمن تحت طيّات ثياب « تكفات البربرية » يوم دهمته قوات أمير أفريقية، نوعاً من الفرار – غير الشجاع – . ولكن هل كان باستطاعة الأمير عبدالرحمن مجابهة هذين الموقفين بغير ما جابههما به ؟ وهل كان مصير عبد الرحمن غير القتل لو أنه سلك سلوكاً مغايراً ؟ لقد جابه بعض أقارب عبدالرحمن العباسيين بغير أسلوب الأمير عبدالرحمن، فكان مصيرهم القتل . وبلغ ذلك الأمير عبدالرحمن فاستصغر فعلتهم تجاه ما أقدم عليه .

ولقد اعتبر الأمير عبدالرحمن أن النتيجة هي التي تقرر أهمية الوسيلة المستخدمة ، وهكذا فإن الاختفاء والتستر كانا وسيلة الأمير عبد الرحمن للوصول إلى هدفه، ويبرز ذلك أسلوب الأمير عبدالرحمن في مجابهة مواقف الخطر ،إذ أنه يخضع لِما لا سبيل له

إلى دفعه حتى يستطيع الوصول إلى ما يساعده على تحقيق هدفه. وقد برهن الأمير عبدالرحمن على شجاعة فائقة في ميادين القتال، كما برهن على تصميم رائع في اقتحام مواقع الخطر، غير أن ذلك كله في إطار عقلاني بعيد كل البعد عن الاستثارات العاطفية أو الانفعالات الطارئة، أو حتى ردود الفعل التي تتناقض مع التخطيط المبرمج الذي برهن الأمير عبد الرحمن على كفاءته العاليـــة في سلوكه وممارسته.

عرف عن صقر قريش بعـد ذلك بطشه الشديد بخصومه، وتدميره لأعدائه بدون رحمة أو شفقة، بحيث أنه قضى على كل أنصاره الذين حملوا معه في البداية أعباء إقامة الدولة، مما قـد يحمل على الاعتقاد بأن الغدر كان من صفات الأمير عبد الرحمن. لكن استقراء حياة الأمير عبد الرحمن القيادية تدحض مثل هذه الصفة التي تتناقض مع ما عرف عن صقر قريش من الفضائل. ولقد أكد الأمير عبد الرحمن ذلك عندما رفض معاملة أبي عثمان عبيد الله بن عثمان بمثل ما عامل العباسيون أبا سلمة الخلال. وامتنع عن الغدر به على الرغم من ثبوت تآمره، واكتفى بتجريده من سلطته والحد من خطره.

أما قضية إعدام الأمير عبد الرحمن لأقاربه بمن فيهم أبناء أخويه فتلك قضية تتعلق ببناء الدولة وتدمير مراكز القوى وهي قضية لا مجال للمهاودة فيها أو المساومة، وكذلك الأمر بالنسبة لأولئك الذين ساندوا صقر قريش في بداية أمره ثم

انقلب الأمير عبد الرحمن ضدهم وأبعدهم ، وفي الواقع فليس الأمير عبد الرحمن هو الذي غدر بهم ، وإنما هم الذين أرادوا الغدر به منذ البداية ، ولم يكن تحالفهم معه إلا تحالفاً مرحلياً أرادوا تقوية نفوذهم من خلاله ، وقد عرف الأمير عبد الرحمن ذلك ، ولهذا وضع مخططاً محكماً للحد من نفوذ حلفائه وعدم السماح لهم بدخول دائرة المنافسة للسيطرة على مراكز القوى .

وقد استخدم الأمير عبد الرحمن أولئك الذين ساندوه ولم يظهروا طمعاً في منافسته طوال حياته ، ومنهم من استمر في خدمة الأمويين حتى إلى ما بعد عهد صقر قريش . وليس ذلك إلا برهاناً قاطعاً على أن أسلوب الأمير عبد الرحمن في **« القضاء على الأعداء »** كان أسلوباً مقنناً بأحكام وضمن إطار مصلحة « بناء الدولة » .

وهو مع ذلك يضع النوازع الإنسانية كعامل أساسي في تعامله مع المنافسين له ، فعندما قتل ابن أخيه لم يرغب بعد ذلك بلقاء أخيه ، وطلب إليه - بالواسطة - اختيار أية بقعة قاصية في الأندلس لإقامته ، وأمده بالمال الذي يحتاجه وصرفه عنه . وكذلك الأمر بالنسبة لمولاه بدراً الذي ظن أن جهده في بداية إقامة الدولة ، سيشفع له في ممارسة السلوك الذي يريده ولو كان في ذلك ما يتناقض مع متطلبات بناء الدولة . فكان أن لقي من عبد الرحمن الجفاء والبعد وسوء المعاملة ، مما ردع كل طامع ، وأدخل الرعب في نفس كل من يفكر بمشاركة صقر قريش في سلطته .

وفي مجال « **الحض على القتال والتحريض على الجهاد** » كان أسلوب عبد الرحمن مميزاً ، فهو يستشير الهمم بتحديد الهدف ، فهو يقول للمقاتلين في معركة يوم المصارة «هذا اليوم هو أُس ما ينبني عليه الملك ، إما ذل الدهر ، وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون ، تربحوا بقية أعماركم فيما تشتهون » . وهو يحرض على القتال بتقريب النصر عن طريق المشابهة ، فهو يشبه معركة المصارة بمعركة مرج راهط ، ويثير بذلك حلفاء اليمانية ويذكرهم بأمجادهم وما نالوه نتيجة نصرتهم للدولة الأموية ، ثم ما حققوه من نصر حاسم في ذلك اليوم .

وعبد الرحمن يستشير أصحابه ويحرضهم على القتال، بالأمثولة فهو يتقدم الصفوف ويعمل على إدارة المعركة برباطة جأش . وفي المعركة ضد الفهري يسرع إلى ابن عمه عبد الملك، وقد شهد منه إقدامه وشجاعته وحسن بلائه ،فيغدق عليه من المنح والأعطيات ما يستحقه : « فأتاه عبد الرحمن ، وجرحه يجري دماً ، وسيفه يقطر دماً ولقد لصقت يده بقائم سيفه ، فقبّل بين عينيه ، وجزاه خيراً ، وقال له : يا ابن عم ، قد أنكحت ابني وولي عهدي هشاماً، ابنتك فلانة ، وأعطيتها كذا وكذا ، وأعطيتك كذا ولأولادك كذا ، وأقطعتك إياهم كذا ووليتكم الوزارة ».

وهكذا يأخذ الحض على القتال أسلوباً عملياً وفورياً عند صقر قريش ، فهو كريم إلى أبعد حدود الكرم والعطاء إلى من يخلص في الدفاع عن الدولة ،وهو عنيف إلى أقصى درجات العنف

في القضاء على الأعداء . ويصبح الثواب مقابلاً للعقاب ومعادلاً له في القوة ممـــا يحمل المقاتل على الاندفاع بإخلاص لأداء واجبه ويحمل المقصر ثمن تقصيره .

ويبقى العامل الحاسم في التحريض على الجهاد واحتمال كره القتال هو رؤية المقاتلين لقائدهم الأمير عبد الرحمن وهو يشرف على المعركة بنفسه ويقتحم مواطن الخطر بذاته – على نحو مــا شهده المقاتلون في معركة يوم المصارة – وذلك هو الأسلوب العملي الذي تميز به قادة المسلمين جميعاً .

ويبقى من أهم مميزات القائد هو « **اتخـــاذه للقرارات الصحيحة** » فالقيادة إنمـا تعني قبل كل شيء اتخاذ القرارات الصحيحة والإشراف على تنفيذها في الوقت المناسب بعد تحويلها إلى تعليمات وأوامر دقيقة وواضحة . وقد عرف عن الأمير عبد الرحمن اتخاذه للقرارات الصحيحة في كافة المواقف ، في تعامله مع الأصدقاء والأعداء ، وفي معالجته للأمور الخاصة والقضايا العامة ، ثم في عدم التسرع بمعالجة الأمور إن لم يكن فيها تناقض مع متطلبات الموقف .

وعلى سبيل المثال هناك موقفان حدثا يوم معركة المصارة تطلب أحدهما حلاً فورياً ، وتطلب الآخر إرجاء القرار إلى ما بعـد أكثر من سنة ، ففي الموقف الأول ، وعندما بلغ الأمير عبد الرحمن ما يقوله المقاتلون عن احتمال هروبه على ظهر جواد أصيل إذا ما احتدمت المعركة ، لم يحاول إقناع المقاتلين بخطة

عصماء أو بمناقشة مقنعة وإنما عمل بهدوء فتظاهر بعدم الرغبة في القتـــال على ظهر جواد سريع الحركة واستبدله ببغل بطيء يستطيع احتمال الصدام والقتال، فدحض الأقاويل بأسلوب عملي وبدون أن يفصح عما يهدف إليه أو ما بلغه من المقولات .

أمـــا الموقف الثاني فهو ذلك الذي اتخذه عندما وصله قول زعيم اليمانية الذي صرح برغبته في تحقيق نصرين في يوم واحد والانقضاض على الأمير عبد الرحمن بعد أن تم النصر على أنصار الفهري –المضرية– وأمام هذا الموقف لم يحرك الأمير عبدالرحمن ساكناً ، ولا تظاهر بأنه علم شيئاً مما قيل . وكل ما فعله هو أنه حرض المقاتلين على استثمار النصر وتطوير الأعمال القتالية إلى أن تم ذلك، ثم عاد إلى قرطبة منتصراً، وانتظر لأكثر من سنة حتى تم له القضاء على خصمه زعيم اليمانية. والمواقف بعد ذلك كثيرة، تظهر بصورة واضحة في معالجة الأمير عبد الرحمن للأمور من خلال سيرة حياته .

ولكن لا بد من الاشارة إلى أن العامل الأساسي الذي ساعد الأمير عبد الرحمن على اتخاذ قراراته الصحيحة هو اعتماده على شبكة دقيقة من عناصر الاستطلاع الأمناء الذين كانوا ينقلون إليه المعلومات الصحيحة بصورة فورية . وقد كان من المحال على الأمير عبد الرحمن اتخاذ مقرراته بمثل الدقة وبمثل الحزم اللذان تميزت بهما القرارات لو لم تكن هناك معلومات دقيقة تتوافر له بصورة منتظمة. والأمر الواضح هو أن شبكة عناصر الاستطلاع

قـــد حظيت باهتمام صقر قريش من قبل أن يصل شبه جزيرة الأندلس، إذ ظهر عملها، وبرز دورها ، منذ اليوم الأول لوصوله إلى الأندلس ، مما يؤكد اهتمامه الشخصي بعنـــاصر الاستطلاع وتنظيمها مما ضمن له مجابهة المواقف المختلفة في الوقت المناسب .

ويبقى هناك أيضاً مبدأ هـام يبرز في سيرة صقر قريش القيادية وهو « حمايته لأتباعه ومرؤوسيه » ممن يخلصون له القول والعمل ، فالأمير عبد الرحمن يدعم وإلى أقصى الحدود أولئك الذين يعملون معه بإخلاص ، ويسهمون معه بتجرد في بناء الدولة ، فيرفعهم إلى ما يحبون، ويصل بهم إلى ما يشتهون، يفرج عنهم كرباتهم إذا ما حلت بهم ضائقة ولا يتمهل في الاسراع لنجدتهم إن نزلت بهم نائبة ، فيشعرون أن جهدهم معه وعملهم له وإخلاصهم من أجله هو بعض مـا يجب عليهم تجاه من يبادله الاخلاص بالوفاء والحب بالعرفان .

وبعد ، فليست تلك هي كل خصائص الأمير عبد الرحمن القياديـة ، ولا هي كل مميزاته الشخصية التي جعلته مرهوب الجانب بقدر ما جعلته قريب المنال من أنصاره وأتباعه . فهو يعالج الأمور كلها من منطلق الايمان ومن نهج الاسلام . منطلقاً في أعماله وممارساته من منطلق المصلحة العامة لجمهور المسلمين ، غير منحاز إلى فئة دون فئة وغير متحيز لجماعة دون جماعة ، وهو إذا ما اضطر إلى الاستعانة باليمانية للتغلب على خصومه في بداية أمره فانه لم يلبث حتى حقق التوازن في علاقاته مع

جميع مراكز القوى ، وأخضعها كلها من خلال توجيه فعالياتها ونشاطاتها إلى الهدف المشترك وهو بناء قاعدة قوية للعرب المسلمين ولكل المسلمين في الأندلس ، وقد أتت جهوده أكلها إذ لم تلبث قاعدة الأندلس أن زهت وازدهرت على الدنيا ، واصبحت رمزاً لقوة المسلمين وحضارتهم طوال قرون عديدة .

٣ — في مبادىء الحرب

إذا كان الأمويون هم ساسة الدنيا في السياسة وإدارة الحكم، فإن مرتبتهم في إدارة الحرب لم تكن أقل من مرتبتهم في مجال السياسة ، بل لعلهم هم أفضل رمز للتكامل بين « السياسة والحرب » . وتكفي قراءة سيرة الأمير عبد الرحمن الداخل أو « معاوية بن أبي سفيان » بصورة خاصة ، لإبراز هذا التكامل .

وتظهر كفاءة الأمير عبد الرحمن في مجال إدارة الحرب، من خلال استخدامه الماهر لمبادىء الحرب . فالمباغتة، وأمن العمل، والقدرة الحركية ، والمبادأة ، واستخدام القوة الهجومية ، والاقتصاد بالقوى والمحافظة على الهدف ... لم تكن سوى بعض مبادئه في إدارة الحرب . كما أن اهتمامه بالاستعداد الدائم للقتال والمحافظة على الروح المعنوية للمقاتلين، والكفاءة البدنية والقدرة على تحمّل الصعاب وتطوير القوات المسلحة وفرض الانضباط والطاعة ، لم تكن أيضاً سوى بعض الأسس والعوامل التي استخدمها لضمان النجاح في إدارته للحرب ، بل إن شخصية

القائد عبد الرحمن ذاته ، كانت نموذجاً لرجل الدولة وللقائد المحارب في وقت واحد ، فهو يبحث عن النصر باستمرار في ميدان الحرب، ليدعم جهده السياسي في بناء الدولة، وهو يبذل كل كفاءته السياسية لدعم جهده الحربي. ومن خلال هذا التكامل بين الجهد السياسي والجهد الحربي ، أقام الأمير عبد الرحمن دولته على قواعد ثابتة وأسس راسخة ، تعتمد قبل كل شيء على موارد القدرة الذاتية للعرب المسلمين .

والأمر الواضح قبل كل شيء، هو اهتمام صقر قريش بتطبيق « مبدأ المباغتة » و « الحرص على المبادأة » . فهو يخطط بدقة من أجل الوصول إلى أهدافه ، ثم هو لا يترك لخصومه الفرصة ، بل يسرع ليباغتهم وهم في بداية أعمالهم القتالية المضادة له. وقد تكررت في سيرة الأمير عبد الرحمن مرات كثيرة عبارة « وما أن بلغه خبر التمرّد حتى أسرع بتوجيه قواته للقضاء على الخارجين عليه » . ولا حاجة للقول إن تجارب التاريخ كلها قد أكدت على أن أفضل وسيلة لقمع أعمال التمرد ، هي تطويقها منذ بداياتها الأولى ، وعدم السماح لها بالتطور، والعمل على خنقها وهي لا تزال في مهدها .

وكان الأمير عبدالرحمن يعرف بأن الطامعين في الحكم كُثر، فيهم الأقرباء والخصوم ، وأنه لا مجال للانتظار حتى لا تتعاظم قوى الثورة ، ولهذا كان يسرع للقاء خصومه ويباغتهم قبل أن يتمكنوا من مباغتته . والأمر مماثل في تعامله مع الأعداء ، فما

أن تتوافر له المعلومات عن حشد قوات الفرنج أو إمارات الشمال النصرانية ، حتى يسرع بقيادة قواته ويعمل على تدمير أعدائه قبل أن تتوافر لهم فرصة لخلق حقائق يصعب عليه التعامل معها.

ويظهر ذلك أن المباغتة عند الأمير عبد الرحمن الداخل لم تكن مباغتة بسيطة مرتبطة بأفق المعركة على شكل مباغتة زمنية أو مباغتة مكانية ، وإنما كانت مباغتة مركبة (معقدة) يشترك فيها عامل الزمن بعامل مكان الهجوم ، قدر اشتراك العوامل الأخرى للمباغتة ، مثل حجم القوات التي يتم زجّها وطريقة إدارة الحرب .

وقد أبرزت معركة « يوم المصارة » والتي كانت أول معركة يخوضها الأمير عبد الرحمن ، حرصه على تحقيق المباغتة ، فقد بات ليلته وهو يستعد للحرب ، في حين كان خصمه يحاول خداعه بحجة تأجيل القتال . وكانت المباغتة كاملة ، بحيث لم تتمكن القوات المضادة من الصمود ، على الرغم مما أظهرته في البداية من ضروب الصمود والشجاعة . والأمر مماثل بالنسبة لبقية حروب الأمير عبد الرحمن ومعاركه ، حيث كان للمباغتة دور كبير وحاسم في تقرير نتائج القتال من قبل أن تبدأ المعركة .

ولم يكن حرص صقر قريش على الاحتفاظ بالمبادأة أقل من حرصه على المباغتة ، فهو يحاول باستمرار وضع خصومه أمام مواقف تحرمهم من حرية العمل ، ويفرض عليهم زمن المعركة ومكانها . وكان في معاركه كلها يجابه قادة على درجة عالية من

الكفاءة ، فكان لا بد له من البحث عن الوسيلة التي تحرمهم من استخدام قدراتهم وإمكاناتهم ، ومن هنا تظهر أهميـة احتفاظه بالمبادأة لفرض المواقف التي تجعله أكثر قدرة على استخدام قواته. ولا ريب أن كفاءته العالية في توزيـع القوات على الأقاليم المتباعدة واحتفاظه بالقوة الضاربة الرئيسية ، قد ضمنا له الوسيلة من أجل مجابهة كل خطر بصورة فورية ، ثم التحرك لمجابهة هـذا الخطر والقضاء عليه بعد أن يتم تطويقه وحصاره .

ويظهر من خـلال ذلك أن المبادأة عند صقر قريش كانت تعتمد على مبدأين يتم تنفيذهما على مرحلتين: المبدأ الأول تطويق القوات المعادية بقوات قريبة منها من قوات الأقاليم ، وتلك هي المرحـلة الأولى لاستيعاب الخطر ، ثم التحرك بالقوة الرئيسية (جيش قرطبة من الصقالبة) لتدمير الخطر وهي المرحلة الثانية. ومن الملاحظ أن معظم تحركات الأمير عبدالرحمن لمجابهة الأخطار الخارجية والداخلية كانت تعتمد على هذه الطريقة ذاتها .

وبدهي أن النجاح في تطبيق هذه الطريقة إنمـا كان يعتمد على تطبيق مبـدأ آخر وهو « أمن العمل » ، إذ كان من المحال على صقر قريش تطبيق المباغتة أو الاحتفاظ بالمبادأة ، لو لم تتوافر له شبكة منظمة من عناصر الأمن التي تضمن له حماية قواته من كل مباغتة ، وتوفر له المتطلبات الضرورية للتحرك بدون احتمال لمجابهة خطر غير متوقع . وبقدر ما كان أمن العمل مضموناً ، كانت القدرة الحركية للقوات عالية ، إذ كان باستطاعة تلك

القوات ، المكوّنة في معظمها من « الفرسان » ، أن تصل إلى أهدافها بأقصى سرعة تستطيعها للتدخل في الوقت المناسب .

والأمر الواضح هو أن « أمن العمل » كان عاماً وشاملاً ، ولا يقتصر على محاور العمليات فقط ، وإنما يتجاوزها إلى مسرح العمليات ذاته ، إذ ظهر في مرات كثيرة أن الأمير عبد الرحمن كان يحيط بموقف أعدائه إحاطة شاملة ، وكان يكتفي في كثير من الأحيان بعدم مجابهتهم ، وإنما يعمل على نصب الكمائن لهم ، مستفيداً في ذلك من الطبيعة الطبوغرافية لمسرح العمليات ، فكان يحقق بذلك « استراتيجية الهجوم غير المباشر » . وكان أعداء الأمير عبد الرحمن – وكما سبق ذكره – يحاولون تطبيق هذه الاستراتيجية ذاتها ، مستثمرين كفاءتهم القيادية العالية وتجاربهم القتالية الوفيرة ، فكان الصراع – كما هو معروف – يأخذ شكل حوار صعب للإرادات المتصارعة ، وكان الأمير عبد الرحمن يبرهن دائماً أنه الأقوى إرادة والأكثر تصميماً على انتزاع النصر . وكان «أمن العمل» يضمن له توفير أفضل الظروف لتحقيق النجاح في حوار الإرادات .

أما بالنسبة للقدرة الحركية العالية للقوات ، فيظهر من خلال الاهتمام بتطوير القوات وتحويلها إلى قوات من الفرسان . وكان الأمير عبد الرحمن يستخدم هذه القدرة الحركية للهجوم باستمرار ، ونقل الحرب إلى مواقع أعدائه ، وكان ينفذ بذلك استراتيجية الهجمات الوقائية . ويظهر ذلك مرة أخرى تداخل

الاستراتيجيات المختلفة وتطبيقاتها في مجال « مبادىء الحرب »، مما يؤكد الكفاءة القيادية العالية التي انفرد بها صقر قريش في إدارة الحرب .

وتبقى هناك ضرورة للتوقف عند مبدأين آخرين كان لهما دور كبير في أعمال صقر قريش ، وهما : « **الاقتصاد بالقوى ، والمحافظة على الهدف** » . وتظهر أهمية المبدأين المذكورين عند مطالعة سيرة صقر قريش ، فقد كانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من الوقائع والمعارك، وكان لا بد له من الموازنة المستمرة بين الأهداف المتتالية للحرب ، وبين القوى والوسائط اللازمة للتعامل معها ، مع إعطاء الأفضلية للاهداف عندما يظهر أن هناك أكثر من هدف يجب التعامل معه في وقت واحد ، وهذا ما كان يحدث في معظم الأحيان . وأمام هذه المواقف بمجموعها كان لا بد من إجراء حساب دقيق لموازين القوى ، بحيث يمكن استخدامها على أفضل صورة وفي أحسن وجه ، وهذا ما أكدته مجموعة الأعمال القتالية لصقر قريش .

وتصعب الإحاطة بأعمال الأمير عبد الرحمن ، ويصعب الحديث عنها ، ذلك أنها تشكل محيطاً واسع الأرجاء ، بعيد الأغوار . وليس من أكثر منجزاته أو أقلها ، تأسيسه للبحرية الأندلسية ، التي تصدّت بعد ذلك للنورمان وجابهت غزواتهم ، وأغلقت في وجههم الطريق إلى بحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) . وإذا كان ضياع بلاد الشام من قبضة الأمويين قد حرمهم فرصة

الإبقاء على هـــذا البحر عربياً إسلامياً ، فقد جاء عبد الرحمن ليجعل من البحرية الأندلسية سداً منيعاً أمام قراصنة البحر من شعوب الشمال وسواهم . وبقي البحر الأبيض المتوسط بفضلهم، ولحقبـــة أخرى من الزمن، بحراً عربياً إسلامياً لا يصله طامع ولا تمتد إليه يد غادر .

تلك هي أسطر قليلة في صقر قريش ، فكيف كانت حياته؟

لم تكن للأمير عبد الرحمن حياة خاصة– إذا صح التعبير– لقد كانت حياته وقفاً على الجهاد ، وإقامة دولة العرب المسلمين وتثبيت بنيانها وإرساء دعائمها ورد الطامعين فيها. فكانت الأيام التي عاشها صقر قريش، في طمأنينة وراحة لا تزيد على أيام قليلة وكانت حياة صقر قريش حركة مستمرة في تنظيم الجيوش وعقد الرايات وتوجيه القوات وتحصين الثغور والقضـــاء على الفتن والثورات ووضع أسس البنيان الحضاري .

ولقـد ظهر في العالم القديم والحديث زعماء وقادة تركوا بصماتهم القوية على صفحات التاريخ غير أن هذه البصمات كانت فردة ، فها هو الاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر وحتى أمراء الكارولنجيين والميروفنجيين « شارل مارتل وبيبان وشارلمان» قـد أسسوا امبراطوريات ضخمة غير أنهم لم يتركوا من الأثر بمثل ما تركه صقر قريش، فقد أسس هذا دولة أورثها لعقبه من بعده فكان فيهم هشام وكان فيهم عبد الرحمن الناصر ، وكان فيهم الحكم المستنصر ، وكلهم كانوا منارات رائعـة ، زادت من

أمية الدولة التي أسسها صقر قريش ولم تنقص منها شيئاً .

فهل الفضل في ذلك لتفوق الأمويين كقادة عظام في الحرب، ورجال كبار في السياسة ؟

لقد كان لبني أمية دور رائع في بناء الدولة العربية ـ الإسلامية . وكان لهذه السلالة الفضل كل الفضل فيما بلغه العرب المسلمون في المشرق والمغرب .

ولكن هل كان لهذه السلالة دورها لولا الإسلام ؟..

الفضل كل الفضل للإسلام ولرسالته الانسانية والحضارية . إلا أن ذلك لا ينتقص من دور حملة شعلة الإسلام الذين أضاؤوا بها المشرق والمغرب .

أولئك هم الاجداد .

وتلك هي أمجادهم ، وأعمالهم .

ويبقى الامير عبد الرحمن ـ صقر قريش ـ منارة في دنيا العرب المسلمين .

خرج طريداً ، شريداً ، مجاهداً ، وصدق قوله تعالى :

(والذينَ جاهدُوا فينا لنهْدِيَنَّهُم سُبُلَنَا) .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
من شعر عبد الرحمن الداخل	٥
ومما قيل فيه	٦
الوجيز في حياة عبد الرحمن الداخل	٧
المقـــدمة	١١
الفصل الأول : عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)	
١ - نهاية العهد الأموي في المشرق	١٧
٢ - الأندلس قبل العهد الأموي	٢٩
٣ - الرحلة الشاقة وإقامة الدولة الأموية في الأندلس	٤٥
٤ - يوم المصارة - النصر الحاسم	٥٦
٥ - الطريق لبناء الدولة	٦٢
٦ - القضاء على مراكز القوى (الفتن والثورات)	٧١

الموضوع	الصفحة
٧ ــ الحزم في بناء الدولة	٨٨
٨ ــ الحرب والحضارة	١٠٣
٩ ــ عبد الرحمن وولاية العهد	١٢٧
الفصل الثاني : صقر قريش والدولة الأموية	
١ ــ الأمويون في الأندلس	١٣٧
٢ ــ عز الإسلام بالأندلس	١٥٢
٣ ــ القوة درب العزة	١٦٦
الفصل الثالث : صقر قريش وفن الحرب	
١ ــ السياسة الاستراتيجية لصقر قريش	١٨٣
٢ ــ صقر قريش وفن القيادة	١٩٥
٣ ــ في مبادىء الحرب	٢٠٥

صدر عن « دار النفائس » للمؤلف

آ - الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية

ب - من « سلسلة مشاهير قادة الاسلام » :

١ - عقبة بن نافع	(الطبعة الثانية)
٢ - موسى بن نصير	» »
٣ - قتيبة بن مسلم الباهلي	» »
٤ - سعد بن أبي وقاص	» »
٥ - عمرو بن العاص	» »
٦ - أبو عبيدة عامر بن الجرّاح	(الطبعة الاولى)
٧ - خالد بن الوليد	» »
٨ - معاوية بن أبي سفيان	» »
٩ - صلاح الدين الأيوبي	» »
١٠ - المظفر قطز	» »
١١ - الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية	» »
١٢ - عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)	» »
١٣ - الحاجب المنصور	

صدر من سلسلة « استراتيجية الفتوحات الاسلامية »
لأحمد عادل كمال :

١ – الطريق إلى المدائن
٢ – القادسية
٣ – سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية
٤ – الطريق إلى دمشق

صدر عن دار النفائس :

– الفتنة ووقعة الجمل (رواية سيف بن عمر)
ت : أحمد راتب عرموش

دار النفائس هاتف ٣٠٢٥٣٨ - ص.ب ١١٦٣٤٧ - بيروت